
كتاب الجمهورية
يونيو ٢٠١٥
www.gombook.net.eg
رئيس مجلس الإدارة
جلاء جاب الله
رئيس التحرير
سيد حسين
كتاب الجمهورية
المرأة والسياسة
فى الفكر الإسلامى
د . رفعت عارف الضبع
دار الجمهورية للصحافة
١١١ ـ ١١٥ ش رمسيس
ت، ٢٥٧٨٣٣٣٠

يونيــو ٢٠١٥

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	٢٠٠ ل.س
لبنان	١٢٠٠ ل.ل
الأردن	٤٫٥ دينار
الكويت	٣ دنانير
السعودية	٣٠ ريالاً
البحرين	٣ دنانير
قطر	٣٠ ريالاً
الإمارات	٣٠ درهماً
سلطنة عمان	٣ ريالات
تونس	٦ دنانير
المغرب	٩٠ درهماً
اليمن	٩٠٠ ريال
فلسطين	٦ دولارات
لندن	٦ جلك
أمريكا	١٥ دولاراً
استراليا	١٥دولاراً استرالياً
سويسرا	١٥فرنكاً سويسرياً

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
١٨٠ جنيهًا
الدول العربية ٩٠ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
١١٥ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
١٣٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
١٧٥ دولارا أمريكيًا

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
25781010 25783333
http://www.eltahrir.net



الإشراف الفنى وتصميم الغلاف

سـيد عبد الحفيظ

سكرتيرا التحرير

شـريف فـاروق
هبـة راغـب

المراجعة اللغوية

وليـد عبـاس

المرأة والسياسة
فى الفكر الإسلامى

هــذا الكتـــــاب

من يرصد تـاريخ بعض الشعوب والحضارات متأملاً فإنه يجد المرأة كانت تعانى احتقاراً وانحطاطاً وإهانة واستهانة فى المكانة وإذا قرأنا الحضارة اليونانية كما يذكر الدكتور إمام عبدالفتاح إمام أستاذ الفلسفة فى كتابه «أرسطو والمرأة» حيث ينقل آراء هذا الفيلسوف اليونانى فى المرأة- التى هى- عنده- أقرب إلى العبد كما أنها أقل عقلاً من الرجل فيقول أرسطو: «المرأة أدنى من الرجل، وأقل من حيث القدرة العقلية، إذ يطغى عليها الجانب الجسدى أو جانب الانفعالات والشهوات فهى أقرب إلى العبد. كما أنها أضعف من الرجل فى قدراتها العامة. ولهذا كان الرجل هو الأعلى والأسمى والأرقى.. وهو الذى يحكم فى المنزل أولاً وعلى المرأة السمع والطاعة، وهو الذى يحكم فى الدولة ثانياً.. وعلى المرأة أن تبقى بعيدًا عن ضجيج السياسة وأن تلوذ بالصمت الذى هو زينتها وتاجها».

وبلغت الإهانة والاستهانة بالمرأة عند بعض الشعوب القديمة إلى درجة لا يصدقها عقل ولا يتحملها قلب حيث أوجبت حرق المرأة المتزوجة فور وفاة زوجها وتدفن جثتها معه فلا حق لها فى الحياة بعد زوجها!!

أما عند العرب قبل ظهور الإسلام فالحسرة تقطع نياط قلب من تنجب له امرأته بنتًا وسواد وجهه يبدو للناس وهو كظيم النفس يتوارى من عار إنجابه الأنثى ولا يملك إلا أن يتحمل هذا العار ذليلاً منكسراً، أو يئد ابنته حية وهذا ما صوّره القرآن الكريم فى الآيتين: ٥٨ و٥٩ من سورة النحل فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ويسجل القرآن الكريم هذا الوأد مستنكرًا هذا الفعل فى قوله تعالى فى الآيتين ٨ و٩ من سورة التكوير ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾.

ويأتى الإسلام ليكرم المرأة أعظم تكريم ويُنصفها أكبر إنصافٍ مبينًا أن المرأة مثل الرجل سواء بسواء فهما من نفس واحدة كما فى قوله تعالى فى الآية الأولى من سورة النساء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

كما أكد القرآن الكريم مساواة الرجل والمرأة فى الاستجابة والعمل فقال فى الآية ١٩٥ من سورة آل عمران ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾.

وكما قال الرسول «النساء شقائق الرجال».

ويأتى الإسلام نافيًا اتهام اليهود «حواء» بأنها سبب إغواء آدم فى الجنة ولذا خرجا منها وهبطا إلى الأرض ولكن القرآن الكريم يُبطل مزاعم هؤلاء اليهود ليبين أن الشيطان هو الذى أغوى آدم وحواء معًا كما جاء فى الآيتين ٣٥ و٣٦ من سورة البقرة ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

ويزداد إنصاف الإسلام للمرأة فجعل لها حقاً مفروضاً فى الميراث بل يصل نصيبها أكثر من الرجل فى بعض الحالات وبذلك جعل لها ذمتها المالية الخاصة.

والويل كل الويل لكل من يظلم المرأة فى ميراثها الذى فرضه الله عز وجل.

ويواصل الإسلام فى تكريم المرأة فمن يكرمها ولا يفضل ابنه الذكر عليها فثوابه الجنة لهذا السبب كما حث الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله «من ولدت له ابنة فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله بها الجنة».

كما نلحظ تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم للأم أكثر من الأب فعندما

جاءه رجل يسأله من أحق الناس بحسن صحبتى؟ قال له: أمك. قال الرجل: ثم من؟ قال: أمك. قال الرجل: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أبوك.

وللأسف هناك من ينسب حديثا للرسول يتشاءم فيه من المرأة ولكن الحقيقة أن الرسول جاء نافيا التشاؤم بالمرأة فعندما أخبرت السيدة عائشة رضى الله عنها أن هناك حديثًا للرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: إن الطيرة ـ أى التشاؤم ـ فى المرأة والدار والدابة قالت السيدة عائشة والذى أنزل القرآن على رسوله ما قال النبى ذلك ولكن قال: كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة فى الدابة والمرأة والدار.

ويؤكد على نفى التشاؤم - أصلا - قوله عليه الصلاة والسلام «لا طيرة فى الإسلام».

وكيف يتشاءم الرسول من المرأة وهى التى بايعته فى بيعة العقبة الأولى وسميت بـ «بيعة النساء» وشاركت فى الجهاد والقتال ضد المشركين فى غزوات الإسلام فى بدر وأحد والخندق كما كانت راوية للحديث النبوى.

ويشهد التاريخ الإسلامى أن المرأة شاركت فى الفتوحات الإسلامية كما ذكر المؤرخ «البلاذرى» فى كتابه «فتوح البلدان».

كما يشهد على أن هناك المئات من السيدات الفقيهات اللاتى تتلمذ على أيديهن كثير من علماء المسلمين كما ذكر الإمام ابن حزم عن تلمذته لبعضهن.

إن هذا الكتاب - المرأة والسياسة فى الفكر الإسلامى - الذى بين يديك عزيزى القارئ الواعى قد أخذ مؤلفه د. رفعت الضبع بسلاسة واضحة ليبرز تكريم الإسلام للمرأة ويبطل اتهامات أعداء الإسلام حول موقفه من المرأة.

ونحن نقول اقرأوا تاريخ الإنسانية منذ القديم لتعلموا كيف أهينت المرأة؟ وفى عصرنا الحديث انظروا كيف جعل الغرب المرأة سلعة فى سوق الجنس وجعل الدعارة بقوانين تنظمها كما وصل الأمر فى الولايات المتحدة الأمريكية أن تسن القوانين لتأجير الأرحام وهناك وكالات متخصصة فى ذلك جعل أمريكا أكبر سوق فى العالم لتأجير الأرحام كما ذكر تقرير جريدة التايمز البريطانية عام ٢٠١٤ فأين أنت أيها الغرب برأسماليتك المتوحشة المهينة للمرأة من الإسلام الذى كرم المرأة أكبر تكريم وأجلَّها أعظم إجلال؟

سيد حسين

رئيس التحرير

إهداء

إلى روح أمى الحبيبة رحمة الله عليها والمسلمين

إلى روح أبى رحمة الله عليه والمسلمين

إلى نجلى "محمد" وذريتى وآل الضبع بجمهورية مصر العربية

وآل جهينة والشهداء الكرام

وقبيلة جهينة بالمدينة النبوية المشرفة بالمملكة العربية السعودية ومصر والسودان والعالم العربى، إلى كل من علّمنى أو تعلّم أو سيتعلّم منى.

إلى كل إعـــلامى إســـلامى ونوعى وأمنى وتربوى واجتماعى وباحث ومتخصص وكاتب وصحفى وناشر ومؤلف، إلى كل مؤثر فى حاضرنا ومستقبلنا، إلى أمتنا الإسلامية والعربية العزيزة.

أهدى هذا الكتاب عسى أن يجعل الله تعالى منه نبراساً يضيء لنا الطريق نحو مستقبل أفضل إن شاء الله فى ميزان حسناتنا، وأن يغفر الله تعالى لنا ولموتانا والمسلمين ذنوبنا، وأن يجمعنا مع الأنبياء والصديقين والشهداء جميعاً بالفردوس الأعلى وأن يحقق لنا السعادة فى الدنيـــا، ونشكر كل من تعاون معى فـى إعـــداد وإخـــراج هذا المؤلـف.

(المؤلف)



مقـــــدمة

قال الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ(١٢) ﴾ «التحريم:١١-١٢». فنرى هنا أن الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يضرب مثلا للذين آمنوا رجالاً ونساءً فلم يذكر اسم نبى أو صحابى أو رجل صالح وإنما ضرب المثل بامرأتين وهذا أعظم تكريم للمرأة وهو أن نموذج الإيمان يتمثل فى هاتين المرأتين الصالحتين.

فالمرأة هى نصف المجتمع وهى التى تربى النصف الآخر وهى الأم والأخت والزوجة والابنة ومصدر الحنان والعاطفة فى الحياة، وقد جعلها الله سكناً للزوج وجعل بينهما مودة ورحمة.. كما كرم الله الأم ووصَّى بها إحساناً فى القرآن فإذا صلحت المرأة صلح المجتمع كله، وكانت بمائة رجل وحملت الدين على أكتافها.

ونجد أيضا أن آخر وصايا الرسول (ﷺ) قبل وفاته كانت (ألا واستوصوا بالنساء خيراً).. كما قال (رفقاً بالقوارير).. وقال(ﷺ) (اتقوا الله فى نسائكم فإنما هن عوان عندكم).. فهنا نجد القيمة الكبيرة للمرأة عند النبى(ﷺ) واهتمامه بها.

نجد أيضا أن هناك سورة فى القرآن اسمها سورة (النساء) تتكلم عن العدل والرحمة مع المستضعفين فى الأرض وخاصة النساء.. فالإسلام هو الذى كرَّم المرأة وأعاد إليها كرامتها بعد أن كانت مهانة وذليلة وبلا قيمة فى كل الأمم التى عاصرت أو سبقت عهد النبى.. كانت مهانة عند اليهود والنصارى والإغريق والرومان والفرس وغيرها من الحضارات القديمة، وجاء الإسلام ليضع المرأة فى مكانها الطبيعى وليغير الصورة تماماً.

وفى هذا الكتاب نقدم رؤية لموقع المرأة فى الإسلام وموقعها فى السياسة الشرعية، وما ينبغى أن تكون عليه فى عالم السياسة اليوم.



المرأة في الإسلام



الفصل الأول

المرأة فى القرآن الكريم

امتدح القصص القرآنى المرأة المؤمنة، وأثنى عليها ثناءً جميلاً، ووصفها بأجلِّ الصفات، وألبسها ثوب العزة والطهارة.

صوَّرها القرآن الكريم أُمًّا رءوفاً عطوفاً حنوناً، تطيع أمر الله، وتسلم أمرها لشرعه، وتصم سمعها عن وساوس الشيطان وأوليائه.

وصوَّرها زوجاً بارة كريمة، وعضواً قويًّا متيناً، تعين على نوائب الدهر، وتحرص على سلامة الصرح الإيمانى، وترد كيد الكائدين، فيشرق صبحها وضيئاً أبلج.

وصوَّرها أختاً رحيمة شفوقة مرهفة، تجهد نفسها وتسعى بكل طاقاتها، وصوَّرها ابنة دمثة لينة، عفيفة بالغة الحياء طويلة الذيل، خفرة الجانب، ترضى بما منح الله، وتنهض بحملها ترضى بما رزق الله، وواثقة بأن الله سيجزيها خيراً.

وصوَّرها ملكة عظيمة العرش كثيرة الأتباع والأجناد، تضاهى الرجال، بل تفوق الكثير منهم الحكمة وسداد الرأى وإدارة شئون العباد والبلاد، إلا أنها تختار الله والدار الآخرة، وتذعن لدعوة الإيمان، وفى هذه الصورة البديعة المظهر والتكوين، والجليلة الشكل والمضمون يتراءى للعين بستان يانع الأثمار والأشجار، رائع الأزهار والأطيار، يحلو للمرء أن يتواثب بين أركانه وزواياه.

فإلى هذا الكرم الوفير، وإلى تلك الحديقة الغنَّاء، للتزود بزاد طيب مبارك، يصل بنا إلى محط النجاة بإذن الله.

يقول صاحب التفسير المنير عن موسى - عليه السلام -: "وأما سبب عدم قتله فهو تشفع امرأة فرعون له، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ ﴾ [1]، وكما هو مصدر سرور وسلوى قد يكون نافعاً ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [2]، أى لعله يكون سبباً للنفع والخير لما رأت فيه من مخايل اليمن وأمارات النجابة، أو تتخذه ولداً وتتبناه لما يتمتع به من الوسامة والجمال، فحقق الله أملها بأن هداها به وأسكنها الجنة بسببه".

تتعرض آيات الله الكريمة لتلك الشخصية الموغلة فى القدم، بتلك الشفافية وذلك الإبداع الربانى، فترسخ الصورة فى المخيلة وقورة كريمة، وتأخذ الكلمات من السمع مكاناً عزيزاً رفيعاً.

كذلك فى سورة مريم، حيث القصة الغريبة التى أفردت فلم يسبقها ولم يعقبها مثلها، مريم - عليها السلام - (النذيرة) سليلة بيت قد اصطفاه الله على العالمين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة نبى الله زكريا وولده يحيى - عليهما السلام - الذى وهب له على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شىء، يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه، وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هى قصة "مريم العذراء"، وإنجابها طفلاً من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار، وسميت (سورة مريم) تخليداً لتلك المعجزة الباهرة، فى خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل فى المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى - عليه السلام -، فالقرآن يعرض لنا صورة مريم - عليها السلام - قانتة عابدة لله، تجأر إلى الله فى المحن، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[4].

---

(١) القصص : آية ٩ .
(٢) القصص : آية ٩ .
(٣) آل عمران : ٣٣ .
(٤) مريم : ١٨.

ثم تجابه وتدفع بالحجة.. قال تعالى: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[٥] والتعبير القرآني يكشف هنا عن نفس فُطرت على الطهارة، وجُبلت على العفة.. نفس تأبى أن يمر بها هاجس من هذا القبيل.

قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ ﴾ أى أومأت (إليه) أى إلى عيسى فتكلَّم، وكان عيسى قد كلَّمها حين أتت قومها، وقال: يا أماه أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه، فلما أشارت إليه أن كلّموه، تعجبوا من ذلك، ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾.

أما سورة (النمل) فإنها تعرض لصنف آخر من النساء، إنها تعرض لنا صورة الملكة ذات العرش العظيم، ذات الدولة والوزراء والجيوش والأساطيل، ولكن إلى جانب هذا فقد أوتيت حكمة وعلماً وسياسة وحنكة، فاختبرت أمر الداعية، فلما لم تره من أهل الدنيا، ومن خزنة الزينة والبهارج أتت إليه مذعنة مسرعة لا تلوى على شىء.

يقول صاحب "الظلال" - رحمه الله - "ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره".

إنها صورة تغشى الفؤاد، وتسكن سويداء القلب، فلا يملك إلا أن يكن لها كل تقدير وإعجاب، ولا يرضى إلا أن يدعو الله - سبحانه - أن يجمعه بها فى دار قراره.

---

(٥) مريم : ٢٠ .
(٦) مريم : ٢٧-٢٩ .

مزايا العرض القرآنى للشخصية المؤمنة

القرآن كله حقٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكله من عند الله الذى أحسن خلق الإنسان، وأودع فيه من الخفايا ما يؤهله لحمل الأمانة التى أبت أن تحملها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾[7]، لذا فإن القرآن نورٌ كله ورحمة، كل ما فيه جدير بالتفحص والتدبر والفهم والتمحيص، كل كلمة فيه مصباحٌ ينير فجراً مشرقاً، وكل خلجة من خلجاته ترتفع بالإنسان إلى عالم الملكوت السماوى، فيصبح ـ بتوفيق الله وعونه ـ مصحفاً يدب على الأرض، وفى أسلوب العرض القرآنى للشخصية المؤمنة صور مضيئة وسمات طيبة، وخلال كريمة ونفحات رطبة تطفئ شيئاً من ظمأ الروح التواقة دائماً إلى ما عند الله.

١- الوضوح والتجلية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة جلية واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، يعرف المؤمن حقـًا ما له وما عليه، فيؤدى واجباته، ويأخذ حقوقه فترضى نفسه ويطمئن فؤاده، وكذلك القصص يعرض بوضوح وجلاء ما كان عليه أمر تلك الثُّلة المؤمنة ويضمن بين ثناياه الرد على ادعاء المبطلين الذين كذبوا على الله فى شأن هؤلاء النسوة، فانحرفوا عن صراط الله السوى لحاجة فى أنفسهم، ومن ذلك قول الله تعالى حكاية عن آدم وزوجه – عليهما السلام –: ﴿ **قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** ﴾[8].

وهى جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قالا؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما نفسيهما مما وقع منهما من المخالفة.. اتضح الذنب فاتضحت التوبة والاعتراف بالذنب بحد ذاته فضيلة وقد مدح الله التائبين المستغفرين من عباده فقال – جلَّ شأنه–: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ**

---

(٧) الأحزاب : ٧٢ .
(٨) الأعراف : ٢٣ .

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[9].

وكذلك فى شأن موسى- عليه السلام- مع الرجل الصالح حين عرضت عليه إحدى ابنتيه أن يستأجره لعملهم، فقد وصفت الفتاة ذلك الغريب الطريد بصفات واضحة، فوجدت من أبيها تجاوباً ورضا وطمأنينة، كان يحتاج إلى أجير، ولكن لا يسكن قلبه إلى أحد، فلما رأى موسى وسمع من ابنته وصفه بالقوة والأمانة، رغب فى موسى- عليه السلام.

٢- الإجمال وترك التفصيل:

فإن هذه من مزايا القرآن عن غيره من الكتب السابقة، ذلك أنه يعطى للقارئ مجالاً ليتفاعل مع أحداث القصة القرآنية فيربط بين وقائعها ليخرج بصياغة كاملة لها.

ففى شأن نبى الله موسى مع امرأة فرعون وخوف أمه عليه فأوحى الله إليها، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[10].

٣- تخير التعابير الملائمة:

فلكل مقام مقالٌ، ولكل موقف أداؤه الملائم من القول الذى يناسبه ويعطيه حقه.

ففى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[11] ، وقال كذلك: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ فهما مضرب المثل فى الإيمان والتقوى والعفة والطهارة، فإيمانهما لم يكن كأى أحد

(٩) آل عمران : ١٣٥ .
(١٠) القصص : ١٠ .
(١١) التحريم : ١١ .

وإنما هما فى أرفع درجات الإيمان، وكذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾.. قال فارغاً ولم يقل قلقاً أو مشغولاً أو مهموماً، ذلك أن التعبير القرآنى (فارغاً) يحوى معانى عدة: من شدة الهم، وشدة الانشغال، وشدة الفزع، والترقب الدائم، والاضطراب الكثير، ما لا يحويه تعبير آخر، كذلك فى قول الله تعالى على لسان سليمان - عليه السلام - للهدهد: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[12]، قال ﴿ الْكَاذِبِينَ ﴾ ولم يقل أكذبت، ذلك أن تعبير الكاذبين صفة، وهى تفيد أكثر من مجرد الكذب العابر فهى تفيد أيضاً من داوم على الكذب حينا من الدهر، وكان هذا حاله، لأن اختلاق أمر كهذا، قوم لهم ملكة ولها عرش عظيم وهم إلى ذلك يسجدون للشمس من دون الله، ليس من شأن الكذب العارض، إنما هو الكذب الكثير الذى لأجله استحق صاحبه أن يطلق عليه أنه (من الكاذبين) لو كان ذلك الهدهد كاذباً.

٤- تقرير حقائق:

فالقصص للعبر، والعبر لاستمرارية الحياة والاستفادة من تجارب الماضين لتسهل الحياة، وليترتب عليها حسن المصير، ففى قول امرأة فرعون: قال تعالى: رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [13]، قدمت الظرف اهتماماً به لنصه على المجاورة، ولدلالته على الزلفى، فقالت (عندك بيتاً) وبينت مرادها بالعندية فقالت (فى الجنة) لأنها دار المقربين، فظهر من أول كلامها وآخره أن مطلوبها أخص داره.

فقد قررت الآية الكريمة حقيقة من حقائق الإيمان، ألا وهى أن غاية الأمر وأقصى الأمانى هى نيل رضوان الله وبلوغ جنته، مع أن من أمانى المؤمن النصر والعزة والتثبيت فى الدنيا، إلا أن فوات أمانى الدنيا أو بعضها لا يرخص من عزيمته، وإنما هناك جزاء لا يزول وثواب لا يفوت.

---

(١٢) النمل : ٢٧ .
(١٣) التحريم : ١١ .

٥- تشريع منهج:

من القـرآن تسـتـمـد التـشـريعـات وتسـن السـنن، وتنهج المناهـج، فـالقـصص القرآنى سـوق عامرة، يجد كلٌّ فيها ضالته ومبتغاه، فيها من المناهـج التـربوية ما يحيل حياة الناس إلى كتلة من الطاعات والأعمال الصالحة.

من هذه المناهج: منهج "تقديم وحى الله على العقل وهوى الأنفس"، ذلك أن للعقل حـدوداً لا طاقة له على أكثـر منهـا، فإخضـاع مـا يفـوق العقل للعـقل يعد ضرباً من العبث، بل طـريقاً إلى الضلال، فكم من منكر للبعث، بحجة أن عقله لا يتسـع لذلك، وكم مـن راد لأحـاديث صـحـيـحـة "خـاصـة تلك التى تتـحـدث عن علامات السـاعـة الكبرى" بدعوى أنهـا غيـر معقولة، أنى ذلك والله - عـز وجل- يقـول: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾؟ ولو أن أم مـوسـى - عليـه السـلام - قـد أصرَّت على تحكيم عقلها لما فعلت مـا فعلت، ولو أنها استشارت أحد العقـلانيين لسخـر منها ولنسـبهـا إلى الجنون، ولكن: إنه وحى الله الذى لا مناص من طاعته وتنفـيـذه، إن الإيمـان هـو الغـذاء الـصحى للعـقل، وهـو الدواء الشـافى لأمـراضـه المزمنة، وفيـه الإجـابة عن التسـاؤلات الملحـة التى شـغلت البـشـرية على مـدار حياتهـا، وهى معرفة الغاية من هذا الوجود ومصدر هذا الوجود، ثم مصيره بعد الفنـاء.

حــــــواء

هى أم البشر الأولى، وزوج أبيهم الأول النبى الكريم عليه السلام، والحديث عنها يلقى الضوء على جوانب شتى من حياة المرأة، فى هذه المرحلة من عمر البشرية التى ينادى فيها بحقوق المرأة ومساواتها ورفع الظلم عنها.

إن دراسة شخصية المرأة تسهم فى فهم طبيعة هذه الشخصية وبالتالى تحديد نقاط ضعفها تمهيداً لإصلاح شأنها، فصلاح أى أمر مرهون برده إلى أصله وفطرته التى فطره الله عليها، إذ إن هناك الوضوح التام والجلاء البيّن بعيداً عن المداهنة والتدليس والركامات التى يخلفها مرور الزمن وتقالب العصور، والأمة اليوم بحاجة ماسة إلى مثل تلك العظات الخيرة والفوائد الجمة.

إن كنا ننتظر هذا من خلال معرفة حواء فحرىٌّ بنا أن نتعرف إليها: مَن حواء هذه؟ كيف كان أمر خلقها؟ وما حقيقة الدور الذى كان لها فى المعصية التى تمت بعد خلق آدم وسكناه وإياها الجنة؟ ثم ماذا بعد الهبوط؟ وما هو المآل بعد انتهاء هذه الرحلة العابرة على الأرض؟ والأهم من ذلك، المنهج الذى رسمته لنا هذه القصة، كى يمكن أن نستخلص لأنفسنا منها زاداً على الطريق؟

الخلق من نفس الزوج:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [(١٤)]، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾[(١٥)].

كذلك قال تعالى: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾[(١٦)]، فالآيات الكريمة إذن صريحة قطعية الدلالة على أن خلق حواء قد تم من جنس زوجها آدم عليهما السلام (من نفسه) ولكن، ما كيفية الخلق هذه؟ وكيف تمت؟

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: "استوصوا

(١٤) النساء: ١.
(١٥) الأعراف: ١٨٩.
(١٦) الزمر: ٦.

بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء".

خلقت من ضلع: إشارة إلى خلق حواء من ضلع آدم، ومعنى خلقت أى: أخرجت كما تخرج النخلة من النواة.

والخلاصة أن خلق حواء قد كان بقدرة الله سبحانه من نفس آدم - عليه السلام - ومن ضلعه، إذ إن هذا ما جاءت به وأكدته النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة.

وما دمنا قد توصلنا لهذا الأمر فلا حاجة تدعو إلى البحث فى كيفية الخلق من الضلع، إذ إن مثل هذا البحث من الغيب الذى اختص الله تعالى بعلمه، وإن كان الخير فى إطلاعنا عليه لتم ذلك، فحدود علاقتنا بهذا الغيب تتوقف عند الإيمان به، والتصديق المطلق بوقوعه.

وهناك من ينكر خلق حواء من ضلع آدم، مثل الزمخشرى صاحب تفسير الكاشف إذ يقول: "إن الشائع أن حواء خلقت من ضلع آدم ولا مصدر صحيحاً لهذه الشائعة، والخبر الذى جاء به غير معتمد، وعلى تقدير صحته فإن المراد منه الإشارة إلى المساواة وعدم الفرق بين الرجل والمرأة وإنها منه وهو منها" ومع كل التقدير لجهود أهل العلم الطيبة إلا أن هذا القول مردود من جوانب عدة:

أولها: إن خلق حواء من ضلع آدم قد ثبت بالمصدر الصحيح الثابت الموثوق وليس من باب الشائعة مطلقاً.

ثانيها: إن التأويل عند صاحب الكاشف لحديث (إن المرأة خلقت من ضلع) على فرض صحته محمول على المساواة وعدم الفرق بين الرجل والمرأة يحتاج إلى قرينة دالة، إذ إن إيراد الكلام بهذه الصيغة يناقض قاعدة شرعية معتمدة، مفادها "حمل النص على ظاهره وعدم صرفه إلى ما سوى الظاهر إلا إذا وردت قرينة صارفة عن الظاهر إلى ما سواه من المعانى غير المتبادرة للمرة الأولى".

فأين هذه القرينة الصارفة؟ إن القول بهذا يفتح على المسلمين باباً يتعذر إغلاقه، ويشكل مصدراً للتشكيك والطعن فى النصوص الثابتة الصحيحة، والله تعالى أعلم بالصواب.

عِبَر من شخصية حواء (عليها السلام) :

العِبْرَة هى ثمار شجرة الإيمان الضاربة جذورها فى أعماق الأرض وطلعها فى عنان السماء، وهى زاد للمؤمن عظيم البركة جليل الشأن والفوز بها نتاج التفكير والتدبر فى كتاب الله، ولقد كثر فى كتاب الله الثناء على المتفكرين المتدبرين، إذ من خلال التفكر والتدبر تستنبط العبر والفوائد، ومن الاعتبار يكون الانتصار على النفس الأمَّارة بالسوء، ويكون العبور إلى شاطئ النجاة.

العِبْرَة الأولى: القوامة للرجل لا للمرأة، فهو المكلف بقيادة الأسرة والمجتمع والدولة، ذلك أنه هو من خلق أولا، وكانت هى من نفسه بعد ذلك، كما أن خطاب التكليف كان له حيناً ولهما معاً حيناً آخر.

إذ إن الوحى له، أمر لها بالضرورة، وفى قوله تعالى لآدم - عليه السلام -: ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[١٧]، فائدة إيراد الضمير "أنت" مع أن الخطاب فيه دلالة على المقصود، إبراز منة الله عز وجل على عبده بسكنى الجنة من غير عمل منه ولا تقديم، وما جعل له فيها من سكنى ونعم، كما يظهر إكرام الله سبحانه لخليفته بالتأكيد من خلال إفراد الضمير (أنت).

"إن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها، ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده، ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله، ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله، وشقاءه بتركه".

العِبْرَة الثانية: إن على المخلوق أن يستسلم لأمر خالقه، دون أن يخضعه لمقياسه ونظرته الخاصة، سواء أكانت هذه النظرة تمثل فرداً أم مجموعاً، إذ إن تدخل الإنسان فى ترتيب نظام الكون هو تجاوز لحدود إنسانيته ومزلق للهلكة والشقاء "وإن مثل قياس إبليس على عنصره الذى هو النار، وقياسه آدم على عنصره الذى هو الطين، واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم، ولا ينبغى أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذى هو قوله تعالى: ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [١٨]، يسمى فى اصطلاح الأصوليين: فاسد الاعتبار، فكل من رد نصوص الوحى بالأقيسة، فسلفه فى ذلك إبليس".

---

(١٧) البقرة : ٣٥ .
(١٨) البقرة : ٣٤ .

العبرة الثالثة: ترك ما لا يُرجى نفعه، فكتب التفسير تعج بالحديث عن نوع الشجرة المنهى عنها، مع أن البحث فى أمرها لا يجدى شيئاً، فمعرفة نوعها لا نفع منه يُرجى، وكذلك الجهل به لا ضرر منه يُخشى، ثم إن التعريج على هذه القضايا العابرة يذهب بالكثير من الجهد والوقت ويسهم فى البعد عن الجوهر الأصيل الذى هو نقاء العقيدة، وصفاء منهلها.

فالعِبْرَة هنا إعطاء كل أمر الحيز الذى يتطلبه لإصلاح حاله، فالفكر إن لم تشغله العظائم شغلته الصغائر.

العِبْرَة الرابعة: الإنسان مخلوق ضعيف. قال تعالى: ﴿ **وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ يُؤخذ ذلك من قول الله تعالى على لسان إبليس لآدم - عليه السلام - ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ مخاطبة لنقطتى ضعف تعتريان الإنسان من أول أمره وهما: الحرص على الحياة وخشية الموت، وكذلك تحصيل المال للإنفاق، وهما تحملان أرق المفهوم العصرى ذاته (الأمن والاقتصاد) وهذا جانب ينبغى أن يستغله المؤمن، وهو تسليم أجله ورزقه لخالقه مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الخالق جل شأنه، وتوظيف طاقاته وقواه للعمل لإرضاء ذلك الخالق العظيم، ومنها السعى فى صيانة روحه وجلب رزقه، بل واستشعار منة خالقه الكريم أن كفاه مؤنة الرزق والأجل.

العِبْرَة الخامسة: العداء مستحكم بين بنى الإنسان، ففى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾[19].

هناك محور عداوة بين ذرية آدم وحواء أنفسهم، وإن كان الشيطان محركها والقائم عليها، فيصير المعنى: ستكون العداوة بين ذريتكم بعضها بعضاً، وهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، مثل قول الله تبارك وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - حين دعا على قومه فوصفهم بأنهم ﴿ **وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ فالمولود إنما يولد على الفطرة، وإنما كفره وفجوره باعتبار ما سيكون عليه أمره عندما يبلغ.

العِبْرَة السادسة: إن حب الاستكشاف والرغبة فى المغامرة لا يكون فى المحرم: إذ إن آدم وحواء - عليهما السلام -مع إباحة ثمر الجنة لهما يأكلان

(١٩) الأعراف : ٢٤.

منه، إلا أن نفسيهما تاقت لتلك الشجرة المنهى عنها، وربما حدثتهما بواطنهما عن أمر خاص حكر على هذه الشجرة فغامرا وتناولا منها شيئاً يأكلانه، وهذا دأب الإنسان مع تطور حاجاته وتنوع رغباته، إلا أن الفطرة كما هى، والطبيعة الأصلية هى الغالبة، من هنا لا بد لكل مؤمن من أن يحصن نفسه ويعالج ضعفه حتى يعود إلى دار السلام التى أخرج أبواه منها.

العِبْرَة السابعة: الإعجاز القصصى وجه من وجوه الإعجاز، وهو ظاهرة فريدة تلوح من خلال تدبر قصة حواء، ذلك أن طبيعة نسج القصة القرآنية وجمعها بين روعة الأسلوب وسمو الهدف أمر معجز لا طاقة للبشر به مطلقاً، دليل ذلك أن النقد الأدبى لا تسلم منه تلك القصص التى جادت بها قرائح الجهابذة من كتاب القصة.

العِبْرَة الثامنة: "لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار" هكذا قال أئمة السلف، وهذا ما يستخلص من قصة حواء، فلقد بادرا (هى وآدم عليه السلام) إلى التوبة وأنابا إلى الله فلم تكن منهما المكابرة والمحاججة، ولم تسول لهما نفساها ذلك قط كأولئك الذين يلوون أعناق النصوص، ويجيرون الشرع ليخدم أغراضهم ويصب فى مصالحهم.

العِبْرَة التاسعة: "إن التدين الحقيقى سيد الحياة العملية لا جزء منها فحسب" إذ إنه مسيرها وضابطها، فالتدين الحقيقى يجعل ما يقوم به الفرد نابعاً من صميم قناعته الذاتية، بل ويجعل للوازع الداخلى سلطاناً على النفس، يستفاد هذا من التوبة المباشرة التى كانت من آدم وزوجه - عليهما السلام - بعد المعصية، بل كانت توبة نابعة من صميم القناعة يحدوها الخوف والأمل والرجاء، الخوف من المعصية، والخوف من عذاب الله، والأمر بعفو الله ورحمته ومغفرته، والرجاء الذى هو صنو الأمل ورفيقه.

العِبْرَة العاشرة: بيان مكانة المرأة، فى هذه القصة إفراد كبير لجانب مهم، ألا وهو العناية الجمة والمكانة الجليلة للمرأة فى هذا الوجود، والتكريم الإلهى العزيز لها، ومن مظاهر ذلك التكريم إقرار إنسانيتها ومخاطبتها بالنصوص كما أنه رد وتكذيب للدعوات المغرضة التى تصف المرأة "بالكائن المقهور".

العِبْرَة الحادية عشرة: الحياة الزوجية مودة ورحمة إذا سلمت من الشيطان:

يقول الإمام ابن القيم: "إن العداوة التى ذكرها الله تعالى، إنما هى بين آدم

وإبليس وذريتيهما، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[20]، وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها فى القرآن الكريم لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو، وأما آدم وزوجه فإنه إنما أخبر فى كتابه أنه خلقها ليسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته، والعداوة بين الشيطان والإنسان، وقد ذكر الله سبحانه فى سورة الروم: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[21]، ممتناً به على جميع بنى آدم، ودعاهم إلى التفكر فى رحمته وحكمته، فالمودة والسكون والرحمة تكون بين كل زوجين؛ لأنهما خُلقا من نفس واحدة، إذا سلما من وسوسة الشيطان وتزيينه، فإن أصغيا له وخدعا بوسوسته انقلب ذلك عداوة وحربا، إذن فالمرأة مخلوق مكرم، لا كائن مقهور منبوذ.

هذه عبر استخلصناها من خلال التعرف إلى قصة الأم الأولى وشخصيتها، وهى عِبَرَ جديرة بالاحترام والتوقير والاتباع والاستفادة منها.

(٢٠) فاطر : ٦.
(٢١) الروم : ٢١.

امرأة فرعون

هى النموذج الفريد الطاهر، الذى جعله الله مثلاً للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله (فرعون)، الذى ادّعى الألوهية، وتكبر وعلا فى الأرض، وأظهر فيها الفساد.

الابتلاء والمصابرة:

وهى آسيا بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف -عليه السلام-وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى، وقيل بل كانت عمته، ولا يعنينا أمر نسبها ما دام قد شرَّفها "عملها".

كان أمر امرأة فرعون -رضى الله عنه- شديد الوقع على النفس صعب الاحتمال، إذ إن كون امرأة فرعون هى نفسها المرأة المؤمنة التى ضرب الله لها المثل ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٢٢]، هذا بحد ذاته عِبْرَة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

لما ألقت أم موسى ولدها فى اليم استجابة لأمر الله وألقاه اليم بالساحل، فالتقطه آل فرعون، وهمّوا بذبحه إلا أن لطف الله سبحانه وتيسيره وقضاءه الأزلى حال دون رغبتهم، فيسر الله امرأة فرعون لتقول لزوجها: ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾[٢٣].

"والعين تقر إذا سرت وحصل لها الهناء"، تلوح إشارة من خلال الآيات الكريمة تؤازرها آية أخرى ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي** ﴾[٢٤]، لقد ألقى الله محبة موسى -عليه السلام- فى قلب امرأة فرعون فأرادته قرة عين لها ولزوجها.

---

(٢٢) التحريم : ١١.
(٢٣) القصص : ٩.
(٢٤) طه : ٣٩.

يقول صاحب "الظلال": "لقد اقتحمت يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعدما اقتحمت عليه حصنه، لقد حمته بالمحبة، ذلك الستار الرفيق الشفيف لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة، وتجسدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف".

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ نهت عن قتله، وأبدت رغبة شديدة فى الإبقاء عليه وأظهرت التعليل بشكل مباشر ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ وعسى حرف يفيد الترجى، وهى رجت المنفعة، هذا على وجه الإجمال، أما التفصيل فقد أوردت عليه نموذجاً واحداً فقط، ولعله النموذج الأكثر نفعاً من غيره بالنسبة لها ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

تلوح إشارة أخرى من خلال الآية: إن فرعون وامرأته لم يكن لديهما ذرية، والنفس تهفو وتتوق إلى الذرية كأمر فطرى، فطر الله الناس عليه، ولئن وجد المؤمن عزاءه فى دينه، وادخر أجره عند الله، واحتسب ذلك كله فى سبيل الله، فبأى شىء يواسى الكافر نفسه؟ وأين يجد سلواه؟

"إنه أحد أصناف العذاب والقهر والتكذيب لذلك الطاغية المتأله، هذا الذى يدّعى أنه خالق الكون، ورازق الخلق لم لا ينفع نفسه أولاً فتكون له ذرية ترث الألوهية من بعده؟ وكان لامرأة فرعون ما أرادت، وأبقى الطاغية على موسى – عليه السلام– امتثالاً لأمر الله، واتباعاً قسرياً لقدره، وانقياداً لحكمه.. كل هذا ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى بأنه الذى يفسد الملك على يديه".

"أو لا يشعرون بما يخفيه لهم قدر الله، فقد أتاهم الله من حيث لا يحتسبون".

"أما قول امرأة فرعون ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ فقط يكون لفرعون ومن معه من قومه، وقد يكون لفرعون على طريقة التعظيم له".

"أو أنها قالت: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بنى إسرائيل".

"وقولها ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ هو قرة عين لنا لأنهما لما رأياه أخرج من

التابوت أحبَّاه، ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ التعظيم ليعاونها فيما تريد ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنا أهل له".

وقوله ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ مسألة من امرأة فرعون ألا يقتله، وذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون، قال فرعون: أما لك فنعم وأما لى فلا، ولو أقر عدو الله كما أقرت لهداه الله به كما هدى امرأته، ولكن الله حرمه ذلك، وقوله ﴿لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا...﴾، قالت امرأة فرعون هذا القول حين همَّ فرعون بقتله، من المفسرين من قال: همَّ بقتله يوم استخرجوه من اليمِّ، ومنهم من قال: يوم نتف لحيته، أو ضربه بالعصا.

"وقول امرأة فرعون لفرعون ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ مخاصمة عنه، وتحبيباً لفرعون به إذ إنه مما تقر به العيون، وتفرح لرؤيته القلوب فلا تقتلوه، ثم ذكرت العلة التى لأجلها قالت ما قالت ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ .

هذه آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون - رضى الله عنها - التى أشار إليها رسول الله (فى حديثه الشريف الذى يرويه عنه أبو موسى الأشعرى -رضى الله عنه- والذى يحدد فيه النساء اللواتى كملن من بنات جنسهن ففضلن المجموع.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

ابتليت - رضى الله عنها - بأخص شئون حياتها، فصبرت وأحسن الله عزاءها، واضطرت لمداراة ذلك الطاغية، على كرهها له، وضيقها به وبقومه المفسدين الفاسقين.

ولعل المتفحص للنصوص التفسيرية يكاد يلمح نفساً تضمر الإيمان بين جوانحها، وقلباً طاهراً نظيفاً قد وفق الله سبيله إلى الهدى والخير، فكانت صاحبته رائدة فى الدعوة إلى الله، وحاضنة لنبى الله الكريم موسى عليه السلام منذ نعومة أظفاره.

يكاد المرء وهو يتطلع إلى أقوال المفسرين يرسم فى مخيلته صوراً شتى

لفرعون وزبانيته، وهم يسددون إليها نظرات الشك، يكادون يخترقون باطنها، وتستشعر هى مرارة كفرهم وعنادهم وجبروتهم، فهى فى ابتلاءات متلاحقة محيطة بها، من كل حدب وصوب.

ويبدو أن فرعون لم يتردد فى تنفيذ رغبة امرأته، فاتخذ قراره بتبنى الوليد الصغير، والاحتفاظ به، وإبقائه فى القصر عند امرأته، ليكون قرة عين لهما.

"وهذا هو تقدير الله سبحانه بحكمته، ليحقق إرادته ومشيئته، فهو الذى قذف محبته فى قلب امرأة فرعون، أمر قلب امرأة فرعون أن يحب هذا الوليد، وما يملك قلبها إلا تنفيذ أمر الله، لأنه جندى من جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو".

يقول د. فضل عباس - تحت عنوان "دور عنصر المرأة فى قصة موسى -عليه السلام-"، "وإذا تركنا أمه وأخته وقد رأينا أن كلا منهما تكمل ما للأخرى، وجدنا امرأة ثالثة تفيض رحمة وحناناً مع عقل راجح واستعطاف مؤثر، كل ذلك يتفاعل مع تدين صادق غير مفتعل، وكأن فرعون أحسَّ بأن هناك أمراً، وهنا ندرك ما للمرأة من تأثير فى حياة الرجل حتى لو كان جبّاراً، نعم لقد استطاعت المرأة أن تؤثر، واستطاع الجبّار أن يستجيب".

الجزاء الأوفى:

قال تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(٢٥).

هذا جزاء من إحسان الله لها، وتكريمه إياها، ورفعه من شأنها أن تكون **﴿مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾** "وقد شبه الله حال المؤمنين فى أن صلة الكافرين لا تضرهم بحال آسيا - رضى الله عنها - ومنزلتها عند الله مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله، إذ قالت **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾**، قريبا من رحمتك، أو فى أعلى درجات المقربين ونجّنى من فرعون وعمله، ومن نفسه الخبيثة وعمله السيئ، ونجنى من القبط التابعين له فى الظلم".

"ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شىء، إذا فارقه فى كفره

(٢٥) التحريم: ١١.

وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة، وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض، إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامة، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به، وهو من أكفر الكافرين".

وقد استحسن العلماء قولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فقالوا: ما أحسن هذا الكلام! فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فهى تطمع فى جوار الله قبل طمعها فى القصور، فـ ﴿عِندَكَ﴾ هو المجاورة، و﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ هو الدار، ولأن الجوار أهم عندها قدمت الظرف، وفى الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث.

بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار، يراد أن يقال لأزواج النبى وأزواج المؤمنين كذلك: عليهن أنفسهن بعد كل شىء، فهن مسئولات عن ذواتهن، ولن يعفيهن من التبعية أنهن زوجات نبى أو صالح من المؤمنين، ها هى امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، فقد تبرأت من قصر فرعون طالبة من ربها بيتا فى الجنة، وقد تبرأت من صلتها بفرعون.

ضرب الله مثلاً للذين صدقوا الله وحده بامرأة فرعون التى آمنت بالله وحده، وصدقت رسوله موسى، وهى تحت عدو من أعداء الله كافر، فلم يضرها كفر زوجها لذا كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاء الله فى خلقه، ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكل نفس ما كسبت، فاستجاب الله لها، فبنى لها بيتا فى الجنة.

وبهذا قال الزمخشرى والرازى والسيوطى والألوسى والخازن، هذا هو الجزاء الدنيوى إذا ما قيس بالجزاء الأخروى لا يعد شيئاً، إنها جنة الفردوس التى وعد الله الصالحين من عباده، ذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء.

قال رسول الله: "موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة فى سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها".

عِبَر من قصة امرأة فرعون

ثمة عِبَر كثيرة يمكن استخلاصها من سيرة تلك المرأة الصالحة منها:

١- العِبْرَة الأولى: الاستعلاء على العرض الدنيوى

طالما اجتهد أهل الزهد والصلاح فى كسر عنفوان النفوس الجامحة، وإبعادها عن مباهج الدنيا ومفاتنها التى تخلب اللب وتعمى البصر والبصيرة، وكثيراً ما حرصوا على وضع حدود لا يتجاوزونها، لئلا تسول لهم النفس الأمَّارة بالسوء التعلق بأهداب النعيم الدنيوى، والافتتان بلمعانه، لئلا تخونهم همتهم، وتغدرهم طاقتهم، لذا فالوضع الأسلم لها أن تبتعد لئلا تضعف فتهوى وتنزلق إلى الهاوية.

أما آسيا امرأة فرعون، فقد كانت نموذجاً يعز وجوده، أغرقت فى بحر اللذات اللامحدود، وأغدق عليها من المال بلا حساب، فكل ما تتوق إليه النفوس مهمل ومطروح عند قدميها، لا يلفت نظرها، ولا ينال من استعلائها الإيمانى قيد أنملة، بل إنه اليقين العميق، والإيمان الشامخ وبُعد النظر، فما عند الله خير وأبقى، ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء.

ولو كانت الدنيا جنة فانية، والآخرة خرقة باقية، لكان الأجدر بالكيّس أن يختار الخرقة الباقية على الجنة الفانية، ولكن الكلام أمر ميسور أما الفعل فهو أشق من ذلك بكثير، ومغريات الحياة لا يصمد أمامها إلا من كتب الله له الثبات والنجاة، وقد كانت امرأة فرعون من هذه الفئة الناجية بفضل الله ومنته.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا فى أزهى صوره، فقط كانت امرأة فرعون ملك ملوك الأرض يومئذ، وفى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تُعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرًّا ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه! وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية، وهذا فضل آخر عظيم، فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته، ولكن هذه المرأة وحدها، فى وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكى، فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء تعبد الله وحده فى خضم هذا الكفر الطاغى.

٢- العِبْرَة الثانية: الصبر والمرابطة

لا بد للاستعلاء من الصبر، فهو حارس على كنوزه يتفقد لمعانها وجدتها، ويحرص على ألا يتسرب إليها شيء من الصدأ، فيؤدى بها إلى التآكل أو طمس بعض المعالم، فبم يصبِّر المرء نفسه، وبأى شيء يواسى قلبه إن لم يكن محتسباً كل ما يراه ويحل به لوجه ربه الكريم؟.

وكيف يكون الاستعلاء على متاع الدنيا، إن لم تعتد النفس تجرع كئوس الصبر واستساغة مذاقه مهما كان مرًّا؟

جعل الله مثلا للمؤمنين حال امرأة فرعون، آمنت بموسى -عليه السلام- فعذبها فرعون عذاباً شديداً، بسبب الإيمان، فلم تتراجع عن إيمانها ولم تضرها صولة الكفر، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله فى جنات النعيم.

٣- العِبْرَة الثالثة: الثقة بوعد الله

إن توالى الابتلاءات وتلاحق الأحداث قد يترك فتوراً فى حياة الداعية إذ إن الطاقة البشرية محدودة، والقدرة على الاحتمال قد تضعف، إن لم يتعهدها صاحبها بالرعاية والاهتمام، وقد يستعجل الإنسان بطبيعته وجبلته الرخاء والخير، ويرغب فى أن ينأى بنفسه عن المتاعب والمشاق والفتن، ولكن حسن تدبيره لأموره، ودقة تفكره فيها يجعل كل مشاقه ومتاعبه، يصب فى ثقته بوعد الله الذى لا يتغير ولا يتبدل.

٤- العِبْرَة الرابعة: الالتجاء إلى الله عند المحن

بعد استنفاد كل وسائل الإغراء والترغيب، وبعد الثقة المطلقة بعدم جدواها وخيبة بريقها، تظهر الصورة الأخرى، الوجه الآخر لصولة الكفر والبغى والظلم الكالح، ولكن هيهات ان ينال ذلك من القلب الذى اتصل بخالقه شيئاً، فهو لم يعد من الدنيا بشىء، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قمة الثقة ومنتهى التصديق وأبلغ الرجاء فى أحلك ساعات الظلمة والطغيان. إنها أقرب إلى خالقها من أى وقت آخر، فهى تجسد سمة الراحلين إلى الله.

لما قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ﴾ طلبت القرب من رحمة الله، والبعد من عذاب

أعدائه، ثم بينت مكان القرب بقولها ﴿في الْجَنَّةِ﴾، أو أرادت ارتفاع الدرجة فى الجنة، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها ﴿عِندَكَ﴾، وطلبت النجاة ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أى من عمل فرعون، أو من نفس فرعون الخبيثة وعمله الغشوم" وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين.

٥- العِبْرَة الخامسة: الذكاء والحصافة

يظهر ذلك من خلال التعبير القرآنى على لسان امرأة فرعون - رضى الله عنها -﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾إذ لو قالت: "لك" أولاً، لقال لها: أنا عندى ما تقر به عينى فلا أريد، ولكنها قالت: «لى» أى من أجلى، فليس لدى ما أبهج به نفسى، أما أنت فعندك من الأجناد ما يسرك وتقر به عينك، إن السياسة الناجحة تقوم على التخطيط المرن، الذى يسعى إلى تحقيق أفضل المكاسب بأقل خسائر ممكنة.

فهذا الصحابى الجليل عبد الله بن حذافة السهمى - رضى الله عنه - عندما ذهب فى السنة التاسعة عشرة للهجرة إلى حرب الروم فى بعث لعمر بن الخطاب فوقع أسيراً فى أيدى الروم، يقول ابن حجر: "وجه عمر جيشاً إلى الروم فيهم عبد الله بن حذافة، فأسروه، فقال له ملك الروم: تنصّر أشركك فى ملكى.

فأبى، فأمر به فصلب، وأمر برميه بالسهام، فلم يجزع: فأنزل، وأمر بقدر فصب فيها الماء، وأغلى عليه، وأمر بإلقاء أسيره فيها، فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر فلما ذهبوا به بكى، قال ردوه.

فقال: لم بكيت؟ قال تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هكذا فى الله، فعجب، فقال: قبّل رأسى، وأنا أخلى عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين، قال نعم، فقبّل رأسه، فخلى بينهم، فقدم بهم على عمر فقام عمر، فقبّل رأسه".

العِبْرَة السادسة: نسخ حكم الزواج بكافر

فقد كانت آسيا بنت مزاحم مؤمنة بالله، مصدقة بوعده، مطيعة لأمره وفى ذات الوقت امرأة لعدو من أعدائه، كان هذا فيما مضى، أما فى شريعتنا الغرَّاء فقد حرم مثل هذا الاقتران. إذ لا يحل للمؤمنة إلا أن تتزوج مؤمناً، قال تعالى:

﴿ ولا تنكحوا الْمُشْركَات حَتَّىٰ يُؤْمنَّ ولأَمَةٌ مُّؤْمنَةٌ خَيرٌ مّن مُّشْركَة ولَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ولا تُنكحُوا الْمُشْركين حَتَّىٰ يُؤْمنُوا ولَعَبْدٌ مُّؤْمنٌ خَيْرٌ مّن مُّشْرك ولَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئك يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّة وَالْمَغْفرَة بِإِذْنه وَيُبَيّنُ آيَاته للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢٦)، وقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ العلة فى تحريم النكاح الدعاء إلى النار، والجواب أن ذلك علة لقوله تعالى: ﴿ ولأَمَةٌ مُّؤْمنَةٌ خَيْرٌ مّن مُّشْركَة ﴾، لأن الشرك يدعو إلى النار، وهذه العلة مطردة فى جميع الكفار فالمسلم خير من الكافر مطلقاً وهذا بيّن واضح.

---

(٢٦) البقرة : ٢٢١.

ملكة سبأ

الملكة التى كانت هدايتها وإكرام الله لها بالإيمان على يد نبى الله الكريم سليمان بن داود - عليهما السلام - الذى سخَّر الله له الريح والطير تسبح معه، ووهب له ملكاً لم يكن لأحد من بعده، راح يتفقد -عليه السلام- الطير، إذ إن هذا شأن الراعى يتفقد رعيته ويسوس أمرها، ويؤدى حقها كما علمه ربه، إلا أنه لم يجد طيراً منها ربما كان غائباً؟ ربما اعتراه شىء؟ قال تعالى: **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾[٢٧]، يتساءل -عليه السلام- عن الهدهد؟

قال تعالى: ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾[٢٨]، هذا سليمان -عليه السلام- يتوعد الهدهد إن لم يوضح سبب تغيبه بالعذاب الشديد أو الذبح.

فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟ قلت: يجوز أن يبيح الله له ذلك من أجل المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع، وإذا سخَّر الله له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصلح به.

توعد سليمان الهدهد بذلك، مع أنه غير مكلف، بياناً لكونه خص بذلك كما خص بتعلم منطقه.

الملك من دون الرجال:

قال تعالى: ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾[٢٩]، "قال الهدهد حين سأله سليمان عن تخلفه وغيبته: أحطت بما لم تحط به أنت يا سليمان"

"ألهم الله الهدهد فواجه سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة، ابتلاء له فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إلى علمه،

(٢٧) النمل : ٢٠.
(٢٨) النمل : ٢١.
(٢٩) النمل : ٢٣

ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة ".

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[٣٠]، "أى أدركت ملكاً لم يبلغه ملكك".

جئتك من بلاد اليمن بخبر عظيم، أنى وجدتهم ملّكوا امرأة منهم، وأعطيت كل ما تحتاجه المملكة، وأجلسوها على عرش واسع، وسرير عظيم. والنبأ: الخبر الذى له شأن.

وهى بلقيس بنت شراحيل وقد أوتيت من أسباب الملك ما يليق بحالها، وقد كثرت أقوال المفسرين عامة، والقدماء منهم خاصة فى نسب ملكة سبأ، وفى وصف عظمة عرشها، وأنه عرش هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ، وأن أحد أبويها كان من الجن... إلخ، إلا أن الاسترسال فى مثل هذا لا يُجدى نفعاً من جهة، من جهة أخرى لم يأت به القرآن الكريم، ولم يتواتر به صحيح السنة، وحسب الباحث أن يتوقف عند ملكية هذه الملكة من دون بنى قومها من الرجال وما كانت عليه من المنعة والقوة، وما كان لديها من الأجناد تدل عليه الآيات اللاحقة إن شاء الله، إذ إن هذا مجال البحث وهنا موضع الفائدة واستنتاج العِبَر، وبالله التوفيق.

قال تعالى على لسان الهدهد يصف ملكة سبأ وقومها: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾[٣١].

كانت هذه الملكة كافرة من قوم كفار، وكانت هذه الأمة تعبد الشمس لأنهم كانوا زنادقة فيما روى، وقيل كانوا مجوساً يعبدون الأنوار ولكن، كيف استعظم الهدهد عرش بلقيس مع ما كان يرى من ملك سليمان؟

الجواب:

يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش، ويجوز ألا يكون لسليمان مع جلالته مثله، كما قد يتفق لبعض الأمراء شئ لا يكون مثله عند السلطان.

وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زيَّن لهم أعمالهم، فأضلّهم فهم لا

---

(٣٠) النمل : ٢٢ .
(٣١) النمل : ٢٤ .

يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، يلمس حديث الهدهد قلب سليمان فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها بهذه الإشارة الخفية، ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان وبراعة فى عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة، وأن هؤلاء رعية، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله.

الحنكة وحسن السياسة:

قَبلَ سليمان -عليه السلام- عذر الهدهد، ولكن العذر بحاجة إلى متابعة، إذ إن إلقاء الكلام على عواهنه مفسدة للرعية ومضيعة للأمر، لا بد من التيقن ليكتمل المنهج التربوى النبوى، ولتتحقق الغاية التى من أجلها كان الوجود، غاية الحكم بما أنزل الله، وبالمنهج الذى فرضه الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٣٢].

"سننظر، من النظر الذى هو التأمل، وأراد: صدقت أم كذبت، إلا أن: (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) أبلغ، لأنه إذا كان معروفاً بالكذب، كان متهماً بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق له".

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾(٣٣)، قال ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ على لفظ الجمع لأنه قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[٣٤] ، أى: إلى الذين هذا دينهم.

يقول الطبرى فى قوله تعالى:"اذهب بكتابى" اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم منصرفاً إلىّ، وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم، فكن قريباً منهم وانظر ماذا يرجعون. قالوا: وفعل الهدهد، وسمع مراجعة المرأة أهل مملكتها ومراجعتهم لها".

---

(٣٢) النمل : ٢٧.
(٣٣) النمل : ٢٨.
(٣٤) النمل : ٢٤.

ثم يرجح الطبرى القول الثانى فيقول "وهذا القول أشبه بتأويل الآية؛ لأن مراجعة المرأة قومها كانت بعد أن ألقى الكتاب، ولم يكن الهدهد لينصرف، وقد أمر بأن ينظر إلى مراجعة القوم بينهم ما يتراجعونه قبل أن يفعل ما أمر به سليمان".

والحق أن ما رجحه الطبرى هو الأقرب للصواب؛ لأن سليمان -عليه السلام- قد كلفه بأمرين هما:-

أحدهما: أن يلقى الكتاب إليهم (الملكة وقومها).

والثانى: أن ينظر ماذا يرجعون، أن ينظر بنفسه، وإن كان سينظر بنفسه فإن عليه أن يمكث حتى يسمع مراجعتهم، ويرد الجواب إلى النبى الكريم -عليه السلام- بنفسه، والله وحده أعلم بالصواب.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾[٣٥].

"فأخذت الكتاب ونادت أشراف قومها وقالت: إنى ألقى إلى كتاب كريم، وكرم الكتاب لختمه، أو لأنه من سليمان وكانت عالمة بملكه أو لكون الرسول به الطير، فظنته كتاباً سماويًّا، أو لكونه تضمن لطفاً وليناً، لا سبًّا ولا ما يغير النفس، أو لبدايته باسم الله، ثم أخبرتهم فقالت: (أنه من سليمان) كأنه قيل لها: ممن الكتاب وما هو؟ قالت: إنه من سليمان، وإنه كيت وكيت، أبهمت أولاً ثم فسَّرت، وفى بنائها (ألقى) للمفعول دلالة على جهلها بالملقى، حيث حذفته، وتحقيراً له، حيث كان طائراً إن كانت شاهدته.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[٣٦]، "طلبت منهم الشورى والمعاونة"، "أخذت فى حسن الأدب مع رجالها ومشاورتهم فى أمرها وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر، فكيف فى هذه النازلة الكبرى".

لما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت لهم: يا أيها الملأ أفتونى، وكرر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم: ثم زادت فى التأدب واستجلاب خواطرهم.

(٣٥) النمل : ٢٩.
(٣٦) النمل : ٣٢.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[٣٧].

"قال سليمان -عليه السلام- لمن جاء من قبل المرأة بهداياها: أتمدوننى بمال ! فما آتانى الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل (بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) يقول: ما أفرح بهديتكم التى أهديتم إلى، بل أنتم تفرحون بالهدية التى تهدى إليكم، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا، ومكاثرة بها وليست الدنيا وأموالها من حاجتى، لأن الله - تعالى ذكره - قد مكننى منها وملكنى فيها ما لم يملك أحداً، أرجع إليهم (قول سليمان لرسول المرأة) فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولا طاقة لهم على دفعهم كما أرادوا منهم".

يقول ابن كثير: "والظاهر أن سليمان -عليه السلام- لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم: (أتمدوننى بمال؟) أى أتصانعوننى بمال لأترككم وملكتكم؟ إن الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، أنتم تتقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف، ارجع إليهم بهديتهم سنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة وهم مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال لها سليمان، سمعت وأطاعت هى وقومها، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان ناوية متابعته فى الإسلام، ولما تحقق سليمان -عليه السلام- قدومهم عليه، ووفودهم إليه فرح بذلك وسر" وبذلك قال القاسمى وابن الجوزى.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[٣٨].

---

(٣٧) النمل : ٣٦-٣٧.
(٣٨) النمل : ٣٨-٤٠.

هناك خلاف فى قصد سليمان استدعاء عرشها فقيل: لما وصف له عظم عرشها وجودته أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويمنع أخذ أموالهم، وهذا مستبعد أن يقع من نبى كريم أوتى ملكاً لم يؤته غيره، وقيل بل استدعاه ليريها القدرة التى هى من عند الله، وفى قوله "أيكم يأتينى بعرشها" دليل على جواز الاستعانة ببعض الأتباع فى مقاصد الملوك، ودليل على أنه قد يخص بعض اتباع الأنبياء بشىء لا يكون لغيرهم، ودليل على مبادرة من طلب منه الملوك قضاء حاجة، وبداءة الشياطين فى التسخير على الإنس، وقدرتهم بأقدار الله على ما يبعد فعله من الإنس".

الهداية ثمرة للتعقل والحكمة:

إن الإنسان يعرف الله بفطرته وجبلته، وما على من يريد اكتشاف هذا فى ذات نفسه إلا أن يتذكر نفسه حين ضاقت عليه الدنيا يوماً، وسد عليه الهم كل جانب، وغشيته الحيرة، لابد أنه شعر حينها بقوة خفية قادرة على إنقاذه وتهوين ما هو فيه، أن هذه القوة هى الله.

ولكن هذه النفس البشرية يعتريها الكثير من الفتور والهوج، فكان إرسال المرسلين والنبيين لتنظيم حياة البشرية وتفقدها لإزالة ركام الفتور عنها، وكذلك لإقامة الحجة على خلق الله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

رق قلب ملكة سبأ لدعوة نبى الله الكريم سليمان -عليه السلام- فوجدت لها صدى فى أعماقها الخفية وراحت تستجمع الأدلة على صدق هذا الداعى وعلى فساد ما كانت عليه هى وقومها، فقد بعث إليها بكتاب موجز لطيف وقد رد هديتها وقد أحسن استقبالها. قال تعالى: ﴿**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٣٩] فقد اكتملت لديها الأدلة، وظهر لها ما كان خافياً من قبل "قيل لها ادخلى القصر أو صحن الدار وكان سليمان -عليه السلام- قد اتخذ قصراً بديعاً من زجاج، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره الله به (فلما رأته حسبته لجة) أى ماء عظيماً (وكشفت) للخوض فيه عن ساقيها، (قال إنه صرح ممرد) أى مملس (من قوارير) من زجاج (قالت رب إنى ظلمت نفسى) أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس (وأسلمت مع سليمان) أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له".

(٣٩) النمل : ٤٤.

عِبَر من قصة الملكة

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ هذا قول رب العزة من فوق سبع طباق، فلتكن العبرة شغلنا الشاغل، ولنكن من أهل السعادة فنتعظ بغيرنا لا من أهل الشقاء فنتعظ بأنفسنا - والعياذ بالله.

١- **العِبْرَة الأولى:** أخذ الأمور بالحزم، والضرب على أيدى المارقين ليستقيم الأمر وتستوى شئون الحياة، يتجلى هذا فى قول الله تبارك وتعالى على لسان سليمان -عليه السلام- يتوعد الهدهد حين لم يره بين جماعته من الطير قال تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[٤٠].

"أحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة".

٢- **العِبْرَة الثانية:** "جواز أن يقول المرء لمن هو فوقه بالعلم والفضل والمنزلة: قد اطلعت على ما لم تطلع عليه، وقد علمت أمراً لم تعلمه من قبل، ولكن من الأدب ألا يبدأه بذلك، وأن يتواضع له وأن يكون مثل هذا القول من باب النصيحة التى هى حق للإمام على رعيته، كما أن فيه رداً على من قال إن الأنبياء تعلم الغيب".

٣- **العِبْرَة الثالثة:** التيقن من المسموع والوقوف على المنقول وعدم ترك الأمر على عواهنه، وفى قول الله تعالى على لسان سليمان للهدهد "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين إرشاد إلى البحث عن الأخبار والكشف عن الحقائق، وعدم قبول المخبرين تقليداً لهم واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه".

٤- **العِبْرَة الرابعة:** اعتماد سياسة الحكمة والتريث يؤدى إلى نتائج مرضية.. إن من شأن الملوك المسارعة فى الغضب واستعجال صب النقمة على من يرون أنه ينبغى مشاطرتهم ملكهم أو التحكم فى شئون ممالكهم، هذا كسرى الفرس غضب وانتفخت أوداجه عندما بعث له رسول الله (كتاباً يدعوه فيه إلى دين الله ونبذ الشرك والوثنية لينال سعادة الدنيا والآخرة، وما كان منه إلا أن مزّق كتاب الداعية الكريم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن ملكة سبأ لم

---

(٤٠) النمل : ٢١.

تكن من هذا الصنف قط، بل آثرت أن تقوم بجس نبض ثم تنظر بعد ذلك ما ستسفر عنه الأحداث.

٥- **العِبْرَة الخامسة:** خفض الجناح للأتباع والاستنارة برأيهم وإطلاعهم على شئون الحكم تسير دفة الأمور وتسهم فى سلامة السفينة (سفينة الملك وعربة السلطان).

"قصدت بالانقطاع إليهم، واستطلاع رأيهم، تطييب قلوبهم. قال تعالى: ﴿ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴾[٤١]، أى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لهم خلاصته، وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالباً تهويلاً للأمر، ورفعاً لمحلهم بالإشعار كأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا** ...﴾ أى من الأمور المتعلقة بالملك ﴿**حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ**﴾ أى إلا بمحضركم وبموجب آرائكم استعطافاً لهم، واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير".

٦- **العِبْرَة السادسة:** الإنصاف وعدم وضع نتائج مسبقة وتقبل ثمار التجارب برضا وطمأنينة، فكم من الناس يربط نتيجة بحثه فى ملمة باتجاه للحل يرضاه هو لنفسه، يستميت فى الدفاع عنه، مثله مثل الذى يتعجل الحكم الشرعى فى أمر فقهى فيضعه نصب عينيه ويصم أذنيه عن سماع غيره ثم يروح يجمع الأدلة على ذلك الحكم الذى استقر عليه، والصراط السوى أن يبحث بمنهجية صادقة ويأخذ كل جوانب الأمر بعين الاعتبار، ثم يكون حكمه مبنياً على البحث الشامل والتدقيق الملم، وقد كان هذا شأن الملكة حين خطَّأت قومها وعابت عليهم الميل إلى القتال والتلويح بالقوة، فقالت: ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾[٤٢]. ذكر أنها قالت: إنى مرسلة إلى سليمان، تختبره بذلك وتعرفه به، أملك هو أم نبى؟ وقالت: إن يكن نبياً لن يقبل الهدية، ولن يرضيه منا، إلا أن نتبعه على دينه، وإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف، عرفت من خلال رده للهدية أنه نبى فلم تحاجج ولم تصر على منكر فعلته بل لم يكن منها إلا التسليم والانقياد.

---

(٤١) : النمل ٣٢.
(٤٢) : النمل : ٣٥.

وقد يسأل سائل فيقول: لمَ رد نبى الله الكريم سليمان -عليه السلام- هدية الملكة مع أنه كان من شأن رسول الله (قبول الهدية؟.. والحق أن الملكة لم ترد بهديتها الغرض الذى من أجله سن الرسول (قبول الهدية وهو الذهاب بالضغائن وتعزيز روابط المحبة وإنما أرادت غرضاً فى نفسها رغبت فى أن تستدل عليه فعرف سليمان -عليه السلام- مقصدها فسارع إلى رد هديتها ولو قَبِلَ منها لما عظم فى عينها ولما تابعته على دينه.. والله أعلم بالصواب.

٧- العِبْرَة السابعة: شكر النعم ورد الفضل إلى الله فيها مرضاة للرب من جهة ومدعاة إلى دوام النعم وإسباغ الهدى والغفران من جهة أخرى، إذ إن سليمان -عليه السلام- حينما أمر بإحضار عرش الملكة فأحضر سريعاً ما كان منه إلا أن شكر ربه وبالغ بالاعتراف بالفضل وإظهار العبودية والامتنان، قال تعالى: ﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾[٤٣] .

قول صاحب الظلال - رحمه الله:

"وسجل السياق القرآنى هذه اللفتة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين... بل التى يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين فى الله، لا غالب منهما ومغلوب وهما أخوان فى الله... رب العالمين... على قدم المساواة، ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول إياهم إلى الإسلام، وفى نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد بن عبد الله، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء، فها هى ذى امرأة فى التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوى بين الداعية والمدعوين بين القائد والتابعين، فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين".

٨- العِبْرَة الثامنة: الحكمة والكياسة

فى جواب الملكة عن سؤالهم لها وقولها له عن العرش (كأنه هو)، دليل آخر على كياستها وحكمتها وحسن تقديرها، ودقة تفكيرها وتدبيرها، كأنها استشفت ببصيرتها الثاقبة أن العرش عرشها، ولكن جدَّ عليه تغيير طارئ لم تكن تعرفه من قبل، وعندما سئلت عنه رأت أنه ليس من دقة النظر ولا الكياسة فى شىء أن تقر بأنه عرشها، أو أن تنفى ذلك، فأعطت جواباً بين (كأنه هو) يكاد يكون هو ذات العرش، ولكن ليس هو.

---

(٤٣) النمل : ٤٠ .

أم موسى عليها السلام

هى التى أكرمها الله بالوحى، فكان وحيه لها مرشداً ودليلاً، وهى التى أكرمها الله بالبشرى والطمأنينة، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده ورد كيد فرعون إلى نحره، ذلك الجبار الذى طغى وبغى، وسام العباد سوء العذاب، وصم أذنيه عن دعوة الأنبياء والمرسلين.

كان حمل أم موسى - عليها السلام - حملاً مباركاً خيراً عليها وعلى قومها أجمعين، وسبيلاً إلى تحررهم من نيِّر العبودية الذى كانوا فيه أيام الفراعنة.

قال تعالى:﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[٤٤].

"وأوحينا إلى أم موسى حين ولدت موسى ﴿ **أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾، والمعنى قذفنا فى قلبها، وليس بوحى نبوة" "أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين" إيحاء الله إلى أم موسى إلهام وقذف، أو منام، أو إرسال ملك ويرجح صاحب تفسير (البحر المحيط): "أن يكون إرسال ملك هو الظاهر لقوله :﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾. وبذلك قال الألوسى.

والمراد من عرض ما جاءت به كتب التفسير حول كيفية الوحى إلى أم موسى -عليه السلام- نفى أن يكون ذلك الوحى وحى نبوة، إذ لم يجعل الله تعالى من النساء نبية. قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا** ﴾، أما غير ذلك من طرق الوحى كالمنام، أو الإلهام الفطرى أو إرسال الملك فكلها جائزة الوقوع ولا دليل يرجح أحدها على الآخر، وغاية الأمر أن الوحى تم من الله إلى أم موسى، ولو كان فى الاطلاع على كيفية ذلك الوحى منفعة لكان ذلك.

قال تعالى: ﴿ **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾[٤٥].

---

(٤٤) القصص : ٧.
(٤٥) طه : ٣٩.

"والضمائر كلها راجعة إلى أم موسى، ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت فيه هجنه لما يؤدى إليه من تنافر النظم، فإن قلت المقذوف فى البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل، قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى فى جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذى هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذى وقع عليه التحدى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر". كان وحى الله إلى أم موسى:

١- أن تقوم بإرضاع موسى بعد ولادته (أن أرضعيه).

٢- أن تجهز له تابوتاً خشبياً على مقاسه، لتضعه فيه عند الخطر، ونلاحظ أن فعل (اقذفيه) يلقى ظل الشدة؛ لأن جرس فعل (قذف) يلقى هذا الظل، ويعطى هذا المعنى، فهى تقذف ابنها الوليد فى التابوت قذفاً ولا تضعه وضعاً ثم تقذف التابوت فى اليم قذفاً أيضاً.

بين القذف والإلقاء:

"قذف بالشىء يقذف فانقذف: رمى وقذفه به أصابه".

"وألقى الشىء: طرحه، واللقى: الشىء الملقى، والجمع ألقاء" وربما كان التنويع بين فعلى الإلقاء والقذف إثراء للصورة المرسومة فى الخيال حول هذه الواقعة الفريدة.

قال تعالى:﴿ **فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ** ﴾(٤٦)، جزاء أخرج مخرج الأمر، كان اليم هو المَأمور" أمر صعب حرج، ولا تقوى عليه النفوس الضعيفة، وإنما النفوس التى سمت وارتفعت حتى غدت لاحظ فيها لوسوسة شيطان، ولا سبيل له عليها، كيف لأم قد وضعت وليداً ضعيفاً لا حول له ولا قوة، ثم أرضعته كما ترضع كل أم وليدها، وما ذلك إلا دليل حنوها عليه، وشغفها به، كيف تضعه فى تابوت وتلقيه فى الماء، ترى هل كانت غائبة الوعى؟ أم أنها لم تعد تلك الأم الرءوم حين فعلت ما فعلت، لقد فعلت ما فعلت خوفاً على ذاك الوليد وحفظاً له، ولكن كيف يكون الحفظ بالإهلاك، كيف ترميه فى الماء، وتجلس بعد ذلك منتظرة ما ستسفر عنه الأحداث؟ ولكن مهلاً لم يكن ما فعلته أم موسى من هذا القبيل بتاتاً، بل إنها المحبة والشفقة والشغف والرغبة فى الإبقاء على الوليد مهما كلف الثمن، وقبل كل ذلك، إنه التصديق بوعد الله، وامتثال وحيه واتباع

---

(٤٦) طه : ٣٩.

أمره، لقد ألقت بوليدها فى الماء حيث الأمواج المتلاطمة، والصخور العظيمة، لكنها امتثلت لأمر الله، وأوكلت وليدها إليه.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[47]، "وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل هم وذكر، إلا هم موسى وذكر موسى، وقيل بل معناه: ناسياً للوحى الذى أوحى الله -عز وجل- إليها حين أمرها أن تلقيه فى اليم، ولا تخاف ولا تحزن، والعهد الذى عهد إليها أن يرده إليها ويجعله من المرسلين ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى لتصرح بأنه ابنها من شدة وجلها، وقيل كادت تبدى بالوحى الذى أوحى الله إليها أن يرده عليها ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ أى بالعصمة والصبر والتثبيت ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى من المصدقين بوعد الله إياها، والراجح فراغ قلبها من كل هم سوى ذكر موسى، أما نسيانها لوحى الله فأمر مستبعد، إذ كيف تنسى وحى الله، وما الذى حملها على الصبر إذا كانت قد نسيته؟ ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾.

"معناه: لولا أن ربطنا على قلبها، والربط على القلب إلهام الصبر وتشديده وتقويته" لأبدت به، وهذا قرين قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فقد حالت رؤية برهان الله دون وقوع الهم. وأم موسى -عليه السلام- حال ربط الله على قلبها دون إبدائها لهوية ولدها.

رجوع الوليد (صدق الله وعده):

لقد أحسنت أم موسى -عليه السلام- فأحسن الله إليها وصبرت فنالت خيراً وجزاءً موفوراً. قال تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[48] "يعنى ما وعدت به مما أوحى إليها من قوله: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ "ووعد الله المشار إليه هو الذى أوحاه إليها أولاً".

---

(٤٧) القصص : ١٠ .

(٤٨) القصص : ١٣.

"دخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة فرعون، فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، فى عز وجاه ورزق دار، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، فسبحان الذى بيده الأمر ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً".

"ولتعلم أن وعد الله" أى جميع وعده، لا خلف فيه واقع لا محالة: "ولكن أكثرهم لا يعلمون ""أى أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا فى غفلة عن القدر وسر القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك، أو لا يعلمون أن الله وعدها أن يرده إليها".

عِبر من ذكر أم موسى (عليه السلام)

كلما توعرت سبيل الداعية منحه الله زاداً مباركاً ليقوى به على مواصلة المسير، وكلما تعاظمت المحنة عظمت الهمة، وقويت العزيمة، وقلَّ فى عين الداعية حجم الابتلاء، ذلك أنه أحسن الظن بالله فليس مثل حسن الظن بالله شئ.

١- العِبْرَة الأولى: صدق التوكل وتفويض الأمر إلى الله

"ألقت أم موسى -عليه السلام- بولدها فى اليم، معتقدة أن فى هذا التدبير الحكيم الخير والنجاة، متوكلة حسنة التوكل مودعة وليداً صغيراً فى أحشاء تابوت فى عرض اليم ترفعه موجة وتحطه أخرى".

"فرددناه إلى أمه" "فرددنا موسى بعد أن التقطه آل فرعون لتقرّ عينها بابنها، إذ رجع إليها سليماً من قتل فرعون، ولا تحزن على فراقه إياها".

٢- العِبْرَة الثانية: مجاهدة النفس فى طاعة الله

الاجتهاد فى الطاعة وإسناد العلم المطلق إلى الله - عز وجل - والقدرة اللامحدودة لذاته - سبحانه - مع اتهام النفس وتحجيمها الدائم إلى جنب الله، لئلا تصطدم الرؤى البشرية بأمر من أوامر الله فيكون هذا مزلقاً نحو الضلال - والعياذ بالله.

لقد قدر الله -عز وجل - لموسى النجاة، ولقد انتفع ببركة طاعة الله - سبحانه - وانتفعت هى بذلك، فقرَّت عيناً، وفرَّج الله عنها ضيق صدرها، وأجلى الهم عن قلبها.

٣- العِبْرَة الثالثة: فضيلة الصبر والاحتساب

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤٩) فأم موسى -عليه السلام- ترضع ولدها وتأخذ أجرها، وما ذاك إلا لصبرها على إلقاء ولدها، وعلى التقاط عدوه له، وعلى فراقه قبل أن يرده الله إليها، واحتساب ذلك كله لوجه الله، وفى سبيل الله.

---

(٤٩) البقرة : ١٥٥.

٤- العِبْرَة الرابعة: جميع الاحتياطات الأمنية لا تنجى من قدر الله

فما حدث من أمر موسى وأمه، هو تدبير إلهى حكيم خفى، ففرعون يقتل أبناء بنى إسرائيل خوفاً من أن يخرج منهم من يكون هلاك ملك فرعون على يديه، ثم هو يلتقط هذا الغلام ويربيه، رجاء أن يكون قرة عين له ولأهل بيته، وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه، فى بيت فرعون يربى عدو فرعون، ولا يجرؤ أحد على مسِّه بأى أذى، إذ إنه فى نظر الحاشية والناس مُتبنى الملك الذى يسعى الجميع لإرضائه وخدمة مزاجه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى أكثر آل فرعون لا يعلمون، أى: كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء.

نساء آل عمران

نعنى بنساء آل عمران، مريم أم المسيح ـ عليهما السلام ـ ووالدتها.

والدة مريم والدة المسيح عيسى -عليه السلام- ذكرها القرآن الكريم فى موضع واحد من كتاب الله -ـ عز وجل ـ- فى سورة (آل عمران) ثالث سور القرآن الكريم فى ترتيب المصحف.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٥٠] يخبر القرآن الكريم عن نذر امرأة عمران جنيناً فى أحشائها لله محرراً من كل ما عدا الله، ثم يخبر عن المرأة حين وضعها، فقد وضعت الجنين أنثى: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٥١].

ثم يجيب السياق القرآنى عن التساؤل الناشئ فى ذهن القارئ ماذا حدث بعد أن وضعت النذيرة الأنثى؟ خاصة أن جو النص يوحى بأن الغلمان هم المرغوب فيهم لمثل هذا النذر، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ...﴾[٥٢]، يأتى حديث القرآن عن امرأة عمران تمهيداً للحديث عن مريم، ثم عن عيسى روح الله -عليه السلام- الذى ما زال الناس على أشد الخلاف فى شأنه، بل إن شأن عيسى بن مريم يترتب عليه إيمان طائفة وكفر أخرى، وضلال الفئة التى غلت فيه -عليه السلام- كما أن التمعن فى النص ومطالعة التفاسير يحمل إشارة على بعض الأشخاص والبيوتات التى اصطفاها الله -عز وجل - وآثرها، ذلك أن لبعض أهل هذه البيوت باعاً طويلاً وقدماً راسخة فى تقوى الله وفى الدعوة إلى دين

(٥٠) آل عمران : ٣٥.
(٥١) آل عمران : ٣٦.
(٥٢) آل عمران : ٣٧.

الله سبحانه، تلك البيوت ما كان اصطفاء الله لها إلا للتقوى والهداية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لقد فاقت مريم الكثيرين فى تبتلها وزهدها وعبادتها، فكانت نموذجاً ومثلاً طيباً وقدوة حسنة فى التطهر والعفاف وكريم الخلق وإخلاص العبودية لله، وحجب النفس عن مباهج الدنيا وزينة الحياة.

لقد انحدرت مريم - عليها السلام - من بيت اصطفاه الله وكرَّمه على العالمين، كما ولدت لأم صالحة زاهدة، راغبة فيما عند الله، وكانت هى نفسها - عليها السلام - طوداً عظيماً وحصناً عزيز الجانب فى كل ما هو خير، فكانت بحق خياراً من خيار من خيار.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[٥٣]، اصطفاه الله من ذويها واصطفى ذويها من العالمين فكانت محل معجزة خارقة قد جعل الله فيها آية وعبرة للقاصى والدانى.

النذر والتقبل:

لقد بدأ شأن مريم - عليها السلام - حينما نذرت أمها ما فى بطنها لله، لخدمة بيت الله خالصاً من شئون الدنيا، محرراً من قيودها وروابطها، بدأ شأنها منذ أن كانت جنيناً فى أحشاء أمها، امرأة عمران، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٥٤]، أما امرأة عمران فهى أم مريم ابنة عمران أم عيسى بن مريم -عليه السلام- أما نذرها فإن معناه: أنى جعلت لربى نذيراً، أن لك الذى فى بطنى محرراً لعبادتك، تعنى عتيقاً من خدمة كل شىء سواك، تعنى بذلك حبسته على خدمتك وخدمة قدسك، مفرغاً لك خاصة، ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ أى فتقبل منى ما نذرت لك يارب، إنك أنت السميع العليم، يعنى إنك أنت يارب السميع لما أقول وأدعو، العليم بما أنوى فى سرى وأريد، لا يخفى عليك سر أمرى وعلانيته، وكان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى الكنيسة، فيقوم عليها، ويخدمها

(٥٣) آل عمران : ٣٣.
(٥٤) آل عمران : ٣٥.

ولا يبرح مقيماً فيها حتى يبلغ الحلم، ثم يخيَّر فإن أحب أقام فيها، وإن أحب ذهب حيث يشاء.

عن أبى هريرة -(رضى الله عنه)- أن رسول الله قال: ما من مولود يولد، إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه) قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[٥٥].

يعنى بذلك جل ثناؤه "تقبل مريم من أمها خادمة لبيت الله بقبول حسن، والقبول: مصدر من قبلها ربها تقبلاً حسناً،﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾" وأنبتها ربها فى غذائه ورزقه نباتاً حسناً حتى تمت، فكملت امرأة بالغة تامة ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ "أى جعله كافلاً لها، ذلك أنها كانت يتيمة، وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً".

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ "يعنى بذلك جل ثناؤه: أن زكريا كلما دخل عليها المحراب بعد إدخاله إياها المحراب، وجد عندها رزقاً من الله لغذائها".

قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٥٦]. "من أين لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت فى غير حينه، والأبواب مغلقة عليك، ولا سبيل للداخل به إليك؟! قالت: هو من عند الله، فلا تستبعد".

هذه مريم -عليها السلام- فى أول نشأتها، تسأل من كافلها عن أمر تشير الآيات ربما إلى أنه لم يأتها به، فتقول: هو من عند الله، وإلا فلم يسأل زكريا -عليه السلام- عن شىء أحضره بنفسه؟

---

(٥٥) آل عمران : ٣٦.
(٥٦) آل عمران : ٣٧.

الاصطفاء والبشارة:

لأنها سليلة نسب طاهر، وبيت مدعم الأركان، وأم عيسى -عليه السلام- الذى ولد بلا أب، فكان ميلاده معجزة، وكانت رسالته رسالة توحيد، وإخلاص عبودية للمعبود بحق، وقبل هذا وذاك لأنه قدر الله؛ ولأن الله يختص برحمته من يشاء، لهذا كله اصطفى الله مريم على نساء العالمين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[57]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ ﴾: "إن شئت جعلت هذا الظرف نسقاً على الظرف قبله، وهو قوله: (إذ قالت امرأة عمران)، وإن شئت جعلته منصوباً بمقدر" إذ إن المعنى لا يختلف بكلا الحالين.

"بينما مريم فى المحراب، إذ قالت الملائكة (يامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ) من الفاحشة، (اصْطَفَاكِ) يعنى اختارك (عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ)، أى عالم أمتها (يَامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ) يعنى صلّى لربك. يقول: اركدى لربك فى الصلاة بطول القيام، فكانت تقوم حتى ورمت قدماها (وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ) يعنى مع المصلين، مع قراء بيت المقدس".

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ الناظر فى مصلحتك والمالك لأمرك، وهو الذى استعذت به، وقوله لها ذلك تطمين لها، كما أنها ليست ممن يظن بربه ريبة، أرسلنى إليك ليهب (لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) والغلام: اسم الصبى أول ما يولد إلى أن يخرج إلى سن الكهولة. وفسرت الزكاة هنا: بالصلاح والنبوة.

قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[58] جعل المس عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه كقوله تعالى: (أو لامستم النساء) والزنى ليس كذلك، إنما يقال فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، والبغى: الفاجرة التى تبغى الرجال.

---

(٥٧) آل عمران ٤٢.
(٥٨) آل عمران : ٤٠.

قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[59] ،"قال الرسول: قال ربك كذلك، ثم فسره بقوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾، أى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك لنبين به قدرتنا، (مقضياً) مقدراً مسطوراً فى اللوح، لابد له من جريه عليك: أو كان أمراً حقيقيًا بأن يكون ويقضى كونه آية ورحمة، والمراد بالآية العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة الشرائع والألطاف، ومان كان سبباً فى قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين.

"فلما قال لها جبريل ما قال: استسلمت لقضاء الله، فنفخ جبريل فى درعها (الفتحة التى من أمام القميص)" فدخلت النفخة فى جوفها، فحملته، حينئذ: اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى -عليه السلام- مكاناً قاصياً عن الناس، وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهى من سلائل بيت النبوة، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت ألا تراهم ولا يروها".

قال تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[60]. "المخاض: وجع الولادة (إلى جذع النخلة) وهو ساق النخلة، قالت: يا ليتنى مت قبل هذا اليوم، وفى سبب قولها هذا قولان:

١) إنها قالته: حياء من الناس.، ٢) إنها قالته: لئلا يأثموا بقذفها، (نسياً منسياً) شيئاً مطروحاً منسياً لا يؤبه له

وقول مريم - عليها السلام - ذلك يحتمل هذين السببين وغيرهما من الأسباب الكثيرة. قال تعالى: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[61].

---

(٥٩) مريم : ٩.
(٦٠) مريم : ٢٣.
(٦١) مريم : ٢٤-٢٦.

هناك خلاف فى المراد بقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ على قولين:

١) جبريل -عليه السلام-

٢) عيسى -عليه السلام- ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه، ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ أى طرياً. ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾أى صمتاً.

والثانى أقرب الوجوه:

الأول: إن قوله (فناداها من تحتها) بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً، والذى علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى -عليه السلام- فوجب حمل اللفظ عليه.

الثانى: إن ذلك موضع اللوث، والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة.

الثالث: إن قوله (فناداها) فعل ولابد أن يكون فاعله تقدم ذكره، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى -عليه السلام-، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى: (فحملته فانتبذت به) والضمير ههنا عائد إلى المسيح، فكان حمله عليه أولى.

والرابع: إن عيسى -عليه السلام- لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، وما كانت تشير إلى عيسى -عليه السلام- باللام، فأما من قال المنادى هو عيسى -عليه السلام- فالمعنى: إنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد فى أول الأمر ما بشَّرها به جبريل -عليه السلام- من علو شأن ذلك الولد، ومن قال: المنادى جبريل -عليه السلام- قال: إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها فى أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات، ولأن عيسى -عليه السلام- هو وليدها، فمن الطبيعى أن يكون تحتها، أما جبريل -عليه السلام- فأى وجه لكونه تحتها؟ قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[٦٢].

انتهى دور مريم - عليها السلام - وراح ولدها عيسى -عليه السلام- يواصل المهمة الجليلة التى أكرمه الله وأمه بها وجعله وإياها آية للناس، "أتت قومها

(٦٢) مريم: ٢٧-٢٩.

محتملة ولدها، قالوا: يا مريم لقد جئت بأمر عجيب، وأحدثت حدثاً عظيماً، يا أخت هارون نسبة منهم لها إلى الصلاح، لأن أهل الصلاح فيهم كانوا يسمون هارون، وقيل: بل كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل شبهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون فى الصلاح، ما كان أبوك رجل سوء يأتى الفواحش، وما كانت أمك بغياً" أى ما كانت أمك زانية "فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبياً".

فلما قال لها قومها ذلك أشارت لهم إلى عيسى أن كلموه، قالوا: كيف نكلم من وجد فى المهد، استحقت مريم - عليها السلام - بعد ذلك، أن تكون مثلا للذين آمنوا وأن تعطف على امرأة فرعون

- رضى الله عنها - وهذه خاصية جديدة، وميزة أخرى تضاف إلى مزاياها وصفاتها الطيبة الكريمة.

عِبَر من قصة مريم - عليها السلام - وأمها:

هى موطن للعبر، ما دامت مثلا للذين آمنوا: قال تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِّلّذِينَ آمَنُواْ).

١- العِبْرَة الأولى: الاصطفاء للتقوى

إن العدالة الإلهية قد بينت وحدة الأصل ووحدة المصير، وخصّت أهل التقوى بالكرامة دون غيرهم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[٦٣]، نجد ذلك فى الحديث عن آل عمران فى سورة "آل عمران" حيث قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾[٦٤] "اصطفى" اختار، "على العالمين": على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور، وذلك أن هؤلاء رسل وأنبياء فهم صفوة الخلق، وآل عمران على العالمين" اصطفى له مريم بولادة عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد فى العالم.

(٦٣) الحجرات : ١٣.
(٦٤) آل عمران : ٣٣.

٢- العِبْرَة الثانية: إخلاص النوايا سبيل الصالحين

لما نذرت امرأة عمران جنينها لخدمة بيت الله محرراً من كل شأن دنيوى فوضعت الجنين أنثى قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[٦٥]، "فى الكلام تقديم وتأخير تقديره: وليس الذكر كالأنثى، والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى، لأن الذكر يصلح للخدمة ولا تصلح الأنثى، هذا قول.. وقول آخر: المراد منه تفضيل هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت: كان الذكر مطلوبى لخدمة المسجد، وهذه الأنثى هى موهوبة لله تعالى، وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى هى موهوبة لله تعالى" تقدم ذلك والإعادة من باب التأكيد.

وما يعنينا هنا أن الله تعالى تقبل مريم - عليها السلام - مع أنها أنثى، وإنها لا تقوى على الخدمة كالذكر، إلا أن تقبل الله لها تفضل من الله على أمها وإحسان إليها على تقواها وصدق نيتها.

٣- العِبْرَة الثالثة: الكفالة من شأن الصالحين

هذا نبى الله زكريا، هو الذى كفل مريم ابنة عمران وقام على أمرها وعمل على رعايتها " الفاعل هو الله تعالى، وزكريا مفعول: أى جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها" فالآيات الكريمة تحمل إشارة وتوجيهًا علويًا كريمًا إلى أهل الصلاح فتكل إليهم مهمة كريمة، ألا وهى كفالة الصغار والقيام على شئونهم، إذ إنهم أجدر الناس بهذه المهمة.

٤- العِبْرَة الرابعة: ثبوت الكرامة للأولياء

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ "قال الرازى احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكريا كلما دخل عليها وجد عندها رزقاً، قال "يا مريم أنى لك هذا" قالت: "هو من عند الله"، فحصول الرزق عندها هو أمر خارق للعادة.

(٦٥) آل عمران : ٣٦.

٥- العِبْرَة الخامسة: التزام حد معين وتفويض الأمر إلى الله

فطاقة البشر معلومة محدودة، وإنما الإيمان فى التوكل، قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾(٦٦)، لقد أشارت إليه بناء على أمر ربانى، لقد أتت قومها تحمل وليدها مع أنها النذيرة لخدمة بيت الله، ومع أنها الموصوفة بالطهر والزهد والعبادة، فيلقاها القوم يعيرونها ويؤنبونها ويعيبون عليها فعلتها الشنعاء، ولكن المؤمن الواثق بما عند الله لا تزعزعه العواصف، ولا تنال منه الأحداث كالذهب يخلص من شوائبه كلما حرقته النار فيبقى الجوهر لامعاً نظيفاً، لقد تولى الوليد المهمة وقطع دابر القوم الظالمين.

"ولا تظن إلا أن هذا الصوت قد بهرهم، وتلك الآية أخرست ألسنتهم وأن هذه الحكمة من طفل فى مهده قد ذاع أمرها فى القرية، وانتشر خبرها فى هذه المحلة، وصار حديث الناس فى دورهم، ومجال القول فى أنديتهم، فأكبروا من شأن هذا الوليد، وبدلوا بظنهم السيئ يقيناً ببراءتها، وعلموا أن هذا الصبى ليس كصبية القرية، بل سيكون له شأن خطير، وخطب جليل".

٦- العِبْرَة السادسة: الأخذ بالأسباب صنو التوكل

فلا منافاة بينهما، بل أحدهما يكمل الآخر، يظهر هذا فى قصة مريم - عليها السلام - عند قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾(٦٧)، لم لا تساقط النخلة عليها رطبها الجنية دون أن تهزها وهى النفساء الضعيفة التى لا تقوى على أدنى عمل ولا تملك شيئاً من الطاقة، ثم أن جذع النخلة بطبيعته يحتاج إلى زمرة من الرجال الأشداء يهزونه ليساقط ثمره، فكيف تقوى عليه أنثى ضعيفة وحيدة فريدة قد وضعت لتوها مولوداً؟ إنه المنهج التربوى التعليمى القرآنى الكريم، إنه الأخذ بالأسباب حتى فى أحرج الأوقات، وأضيق الظروف.

---

(٦٦) مريم : ٢٩.
(٦٧) مريم : ٢٥.

٧- العِبْرَة السابعة: مراقبة الله فى كل الأحوال

لقد بلغ الحزن مداه فى مريم - عليها السلام - إنها آلام الجسدية والوخز النفسى يخترق العذراء البارة الطاهرة، وتبلغ المعاناة مداها حين تقول: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، ولكن مهلاً إنها عناية الله تلاحظها، فلتتم إذن فإن المخاوف كلها أمان.

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخــــاوف كلهن أمان

لقد أدركها فرج الله، وأضاء لها نور الفجر بعد طول ظلمة ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾[٦٨]، يقول صاحب الظلال: "ونحسبها قد دهشت طويلاً، وبهتت طويلاً قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزها ليساقط عليها رطباً جنياً، ثم قامت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها وإلى أن حجتها معها.. هذا الطفل الذى ينطق فى المهد فيكشف عن الخارقة التى جاءت به إليها" لقد تعرفت إلى الله فى الرخاء فعرفها فى الشدة.

٨- العِبْرَة الثامنة: الصبر على الشدائد

لقد صبرت مريم - عليها السلام - على ما كان من أمر حملها وعزت نفسها بوعد الله لها، كما صبرت على وخز الناس لها بكلامهم القارس وتعبيرهم الحاد، وقبل ذلك لقد صبرت على مباغتة الملك لها وهو على هيئة بشر ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

"ها هى فى خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها، ولكن ها هى ذى تفاجأ مفاجأة عنيفة، إنه رجل مكتمل سوى، وها هى ذى تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل فى خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد، وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل".

---

(٦٨) مريم : ٢٤.

٩- العِبْرَة التاسعة: جواز وقوع النذر لله

بل واتخاذه سبيلاً لمرضاة الله، ورغبة فى رحمته وفضله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وقد تواتر العمل بالنذر لشرعيته وثبوته والتزام علماء الأمة به.

١٠- العِبْرَة العاشرة: الخضوع لله والتسليم بقضائه

فإن مراد امرأة عمران - كان مولوداً ذكراً ليكون نذيراً لله سبحانه، لكنها وضعت أنثى، فلم تبتئس لجنس المولود، ولم تيأس من روح الله، بل رضيت وسلمت مع أنها أسفت لكون الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر. "وفيه معنى التسليم لله والخضوع، والتنزيه له" فإن المؤمن مقياسه أخروى، لا يخضع كل ما حوله لحسه وعقله وتدبيره، فربما كره أمراً، وكان ذلك الأمر خيراً، وربما أحَبَّ أمراً وكان ذلك الأمر سوءاً. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١١- العِبْرَة الحادية عشرة: تسمية المولود يوم يولد

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها، حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة.

الاسم: ما يُطلق على الشخص من ذكر لينادى به عليه.

المسمى: العلم الذى وقعت عليه التسمية.

التسمية: مصدر وهى تعنى القيام بالفعل الذى هو التسمية.

الاسم: هو مريم - عليها السلام

والمسمى: ذات الشخص الذى أطلق عليه الاسم.

التسمية: قيامها (الأم) بهذا الفعل هو إطلاق الاسم "فيه دليل" على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا.

١٢- العِبْرَة الثانية عشرة: التوحيد هو التحرر

يقول صاحب "الظلال" تعقيباً على نذر امرأة عمران:

"ومن هنا يبدو أن التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر، فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة، لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله، وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله، وحين جاء الإسلام بالتوحيد، جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان، وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها منها نذرها، - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الإسلام لله والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه.

وفي ذلك رسالة إلى أدعياء التحرر، الذين ينفلتون من الأحكام الشرعية ويبيحون المحرمات باسم الحرية ونبذ التقييد، وما درى هؤلاء أن العبودية لله هي التي تحول دون العبودية للشهوات والرغبات والأوثان. فالإنسان مربوب بطبعه لأنه مخلوق، لا يمكنه إلا أن يكون عبداً، إن لم يكن عبداً لله فعبد لمن دون الله، ولقد اتخذ بعض الناس لهم معبودات مضحكة بائسة، فمنهم من عبد النار، ومنهم من عبد الكوكب، ومنهم من عبد حتى "الأبقار" وفي ذلك دليل على حاجة الإنسان إلى القوة الخالقة التي ترعاه وتحميه وتأخذ بيده، ويفزع إليها عندما تلم به حادثة، أما فكرة التنكر للذات الخالقة فقد كانت طارئة وشاذة على تاريخ البشرية وما لبث أن تقوقعت وتبخرت وتلاشت كأنها لم تكن.

أما غيرها من الأفكار من علمانية ووجودية وعقلانية وقومية فقد أعلنت هي الأخرى إفلاسها وتهافت دعواتها ودليل ذلك ما تحياه شعوبها من تشرد وضياع وجوع نفسي وفراغ روحي، ولم يبق إلا الاحتكام لشرع الله حتى تستتب الحياة على أرض الله.

"إن رد الحاكمية" لله، أي التحاكم إلى شريعة الله، وعدم التحاكم إلى أي شريعة أخرى غير شريعة الله، فضلاً عن كونه من حق الله على عباده لأنه من الخصائص الخالصة للألوهية "ألا له الخلق والأمر" فإنه في الوقت ذاته هو

الضمـان الحقيقى لحـرية البشـر فى الأرض، وعـدم تحـويل بعضـهم إلى أرباب وأكثـريتهم إلى عـبيـد لأولئك الأرباب، الأمـر الذى يلغى فى التـو وجود الأرباب، ويحرر الناس فى الأرض من عبادتهم.

إن إخـلاص العبـودية لله وحده سـواء فى إفـراده بشعـائر التـعبـد أو إفـراده بالحاكمية هو فما دام الله وحده هو المعبود - سـواء بتقديم الشعـائر له وحده أو بتنفيذ شريعته دون كل الشرائع فمن أين يوجد الأرباب الذين يتعبدون العبيد؟!.

كلا! لا يتحـرر الناس الحرية الحقيقـيـة فى الأرض إلا حين يكون الله وحده هو المعبود، ويكون الناس كلهم، حكاماً ومحكومين، عبيداً لله وحده دون شـريك.".

الفصل الثانى

نساء قلّ ذكرهن فى القصص القرآنى

نساء قلّ ذكرهن فى القرآن

حوى القصص القرآنى إشارات إلى شخصيات من النساء اللواتى جاء ذكرهن قليلا بالمقارنة مع غيرهن، فكان لهن دور وإن كان كبيراً حيناً، وعابراً حيناً آخر، حيث أسهم ذكرهن فى إعطاء صور شتى للحياة، وللسنوات المتلاحقة من عمر البشرية، وبالتالى كان فى عرض قصصهن عبر لا ينبغى تفويتها وإنما الوقوف عليها وتمحيصها.

"سارة" زوج إبراهيم « عليه السلام »

من هذا الصنف من النســاء زوج إبراهيم - خليل الله صلوات الله وسلامه عليه . التى ذكرت مرتين فى كتاب الله، كلتيهما عند تبشير ملائكة الله -عز وجل - لإبراهيم -عليه السلام- بالغلام، مع أنه كان شيخاً فانياً، ومع أنها (زوجه) كانت عجوزاً عقيماً.

كما ذكرت فى حديث رواه أبو هريرة -(رضى الله عنه)- وتناقله عنه أهل العلم، وهو ينبئ عن كرامة اختص الله بها هذه الزوج المؤمنة، التى صدقت النبى الكريم، إبراهيم فنصرته وآزرته، وهاجرت معه فراراً بدينهما واختياراً لعبادة الله على عبادة غيره من الأوثان والمعبودات بغير حق.

لقد تمكن الإيمان من قلبها، ولامس شغاف روحها، فاطمأنت به نفسها، واحتسبت ما تلاقيه من محن فى سبيل الله، فجزاها الله خير الجزاء، وأعطاها جزيل العطاء بأن كتب لها الحسنى فى سجل المتقين الأخيار، وخلّد ذكرها فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم منَّ الله عليها بنعمة الإنجاب وحقق لها حلم الأمومة فى سن الشيخوخة، ذلك الحلم الذى كانت شغفة به فى شبابها الغض، وهذه كرامة أخرى لها، وعناية إلهية فائقة بها، وبزوجها النبى الكريم -عليه السلام-، وللآخرة خير وأبقى.

زاد طيب مبارك يستطيع المؤمن تحصيله من هذا القصص، أحداث تتسارع وتتقالب على مسرح الحياة، والأدوار هى ذات الأدوار، فإن تبدلت الوجوه والهيئات، فإن الجوهر هو ذاته لم يتغير ولم يتحول.

وزوج إبراهيم - النبى الكريم -عليه السلام- نموذج تفتقر إليه الأمة، ويعز وجوده فى بيوتها إلا من عصم الله، فلعل دراسة هذا النموذج، تكون خطوة وحافزاً للتكثير منه وانتهاج نهجه.

التبشير بالغلام:

أما الغلام فكان كرامة أخرى، ليعلم الناس أن الله محسن إلى عباده، رحيم بهم، لطيف جواد كريم، يداه مبسوطتان بالعطاء، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾.

قال تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** [٦٩].

تصوير معجز للمشهد، فلقد دخل الرسل وحيوا إبراهيم -عليه السلام- فرد تحيتهم وانثنى ليكرمهم، وامرأته قائمة، لماذا كانت واقفة؟ فهى عجوز وبعلها شيخ أليس الجلوس أولى بها؟

"(امرأته) سارة: كانت قائمة من وراء الستر تستمع كلام الرسل، وكلام إبراهيم -عليه السلام- أو كانت قائمة تخدم الرسل" فهى مع كونها عجوزاً إلا أنها قائمة تخدم الأضياف، وتؤدى حقهم فكلا الوجهين جائز الوقوع، ولا ينفى أحدهما الآخر.

فالمشهد المعجز تمثل فيه أمران:

أحدهما، هو: حلول العذاب بالمكذبين الضالين من قوم لوط.

والآخر هو معجزة للنبى وكرامة لزوجه، وهو بشرى بغلام على كبر السن وهشاشة العظم، فالمشهد ذات المشهد، والرسل هم الرسل ولكنهم يحملون غضب الله ونقمته إلى قوم كما يحملون نصر الله وتمكينه إلى قوم آخرين.

ولكن لماذا ضحكت؟ فى حدث كهذا الأضياف لا يأكلون، والنبى الكريم -عليه السلام- أوجس منهم خيفة، والعذاب واقع ببعض القوم فما المضحك فى الأمر؟

ذكر المفسرون وجوها متعددة فى الجواب على الضحك:

١- "ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم (لا تخف).

٢- ضحكت هزواً من قوم لوط أن يكونوا على غفلة، وقد نفذ من أمر الله تعالى فيهم ما نفذ.

---

(٦٩) هود: ٦٩-٧٣

٣- ضحكت من البشارة بإسحاق وهذا مقدم بمعنى التأخير.

٤- ضحكت لما رأت بزوجها من الروع.

كل هذه الوجوه التى ذكرها أهل التفسير لا تناقض بعضها بعضاً، فلربما كان الضحك من أجلها

جميعاً، وربما كان لأمر آخر لا يعلمه إلا الله، ولكننا نميل "دون جزم" إلى أن الضحك كان سروراً بسبب التبشير بالغلام، لأمرين:

١- لقوله تعالى: **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾**[٧٠]، الآية الكريمة تتحدث عن المشهد نفسه، ولكن فى موضع آخر من كتاب الله، فالاستنكار والصك كان هنا للتبشير بالغلام.

٢- المشهد يتحدث عن أمور عدة، منها التبشير بالغلام، والأمور العديدة هذه مع أنها تعنى زوج إبراهيم كلها، لكونها مسلمة تحب الإسلام وأهله، فإننا نظن أن أكثر ما كان يعنى زوج إبراهيم وأكثر ما كان يشغلها شأنه هو التبشير بالغلام، ونرى أيضاً أن لها عذرها فى ذلك، فتلك هى فطرة الناس التى فطرهم الله عليها، والله أعلم بالصواب.

"فأقبلت امرأته فى صرة فصحكت وجهها"

"لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان، وإنما هو كقولك (أقبل يمشى)، والمعنى أنا أقبلت فى صيحة، أو فى ضجة" "فصكت": أى لطمت "وجهها"، تعجباً، على عادة النساء فى كل غريب عندهن".

"قالوا كذلك قال ربك"، "إنك ستلدين غلاماً، والمعنى: إنما نخبرك عن الله - عز وجل - وهو حكيم عليم، يقدر أن يجعل العقيم ولوداً".

تمت البشرى بالغلام "والجمهور على إنه إسحاق -عليه السلام- وزوج إبراهيم -عليه السلام- هل ضحكت أم ضربت وجهها؟"، ففى هود ضحكت، وفى الذاريات أقبلت بصرة وصكت وجهها، وفى الموضعين أشارت إلى عقمها مرة بالتصريح، ومرة بذكر عجزها وشيخوخة بعلها، فما الذى فعلته إذاً؟

كلا النصين يرسم مشهداً واحداً، وهو وقت وقوع البشرى أما الضحك والضرب فلا تنافى بينهما، إذ إن مردهما التعجب والدهشة جميعاً فالمستغرب

(٧٠) الذاريات : ٢٩.

لحدوث أمر، المستبعد لوقوعه، قد يضحك، وقد يضرب وجهه، وقد يفعل الاثنين معاً.

ولكن ما الذى يدفع المرء لأن يضرب نفسه، إذا ما عجب من شىء؟، قد يكون الضرب تنبيهاً للنفس لأن تصحو فلا تسترسل فى الآمال، ولا تكثر من الأمانى، وقد يكون اتهاماً للنفس بأن فهمها ربما كان خاطئاً.

وربما أرادت زوج إبراهيم -عليه السلام- أن تسكت نفسها فلعل ما تسمعه من الملائكة من قبيل ما حدَّثت به نفسها حيناً من الدهر، وقد تتهمها بالخلط والقصور عن إدراك الأمور، ولكن الله - سبحانه وتعالى- أرحم بها من نفسها، فلم يكلها إلى هواجسها طرفة عين بل تداركها بلطفه، فقالت الملائكة: "وكذلك قال ربك" ليستحكم يقينها، وتزداد إيماناً وتصديقاً بوعد الله.

عِبَر من قصة سارة زوج إبراهيم -عليه السلام-

لما كان السعيد من اتعظ بغيره، والشقى من اتعظ بنفسه، كان لا بد للمرء من أن يسعى لأن يكون من أهل السعادة، وللسعى عِبَر يستخلصها، وفوائد يستنتجها عندما يُعمل فكره فيقرأ ويتدبر:

١- ـ قدرة الله مطلقة، لا تتقيد بالضوابط والمألوف:

لئن كانت إرادة الله -عز وجل - أن تجعل للناس شئونا مألوفة، وأحداثاً مضبوطة محددة، يقف عندها العقل، ولا تتعداها الأفهام، ذلك أن الطبائع قد جبلت قسراً وإجباراً، فقد مضت سنة الله فى خلقه أن للحمل والإنجاب وقتاً معلوماً وعمراً محدداً، عندما تصله المرأة ينقطع ولدها فلا تنجب ولا تحمل ولا ترضع، لكن زوج إبراهيم - خليل الله عليه السلام- كان لها شأن مختلف، وميزة عن عامة النساء، ألا وهى الإنجاب فى سن العجز والهرم.

يقول صاحب "الظلال":

"كل شىء يكون إذا قيل له كن، وقد قال الله، فماذا بعد قوله؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدارك البشرى وتحدان من تصوراته، فيدهش إذا رأى ما يُخالف المألوف له، ويعجب كيف يكون، وقد يتبجح فينكر أن يكون! والمشيئة المطلقة ماضية فى طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود، تبدع ما تشاء، بغير حدود ولا قيود".

٢- الله - سبحانه - قاصم الجبارين:

لقد كان ذلك الملك الذى وفد إلى بلده، إبراهيم وزوجه، قوياً مستكبراً متسلطاً، لديه من الأعوان والأجناد ما يهيئ له ما يريد، وقد كان إبراهيم ضعيفاً وحيداً فريداً فسلب منه ذلك الجبار زوجه. "فهل ترى محنة أشد، وفتنة أعظم من ذلكّ رجل غريب يفد إلى بلد، فتسلب منه زوجه، ويفرق بينه وبين أهله".

"لقد قدم الله لذلك الفاجر الجبار آية على قوة الله وقدرته، وعلى عجز ذلك الجبار"، لقد كان فى كرامة سارة - رضى الله عنها - قهر لجبروت الطاغية، وتحجيم لبغيه وظلمه، وقبل ذلك مدعاة له ولأمثاله ليسلكوا طريق الجادة ،فإن من عادى الله قصمه.

٣- استخدام المعاريض:

ففى المعاريض مندوحة (أى متسع) عن أن يقع المؤمن فى الكذب، والحكمة الحقة هى تحقيق أكبر المكاسب الممكنة بأقل الخسائر الممكنة.

فإبراهيم -عليه السلام- أخبر ذلك الطاغية عن سارة انها أخته وهى زوجه، ولكنها أخت له فى العقيدة قبل أن تكون له زوجاً "والزواج عرض دنيوى زائل"، أما أخوة الدين فهى باقية إلى أن يصل أهل الإيمان جنة ربهم، وقد كان -عليه السلام- يبغى بذلك تجنب ظلم الطاغية وبغيه وسوئه.

٤- الصبر على الابتلاء عاقبته النجاة والفوز:

إن الله يختار عباداً له يصطفيهم ويكرمهم بأنواع المحن وأصناف البلاء، وما ذلك إلا لخير لهم، فهم إما شاكرون وإما صابرون وكل أمرهم لهم خير، لقد ابتليت سارة - رضى الله عنها- بالعقم، وبالطاغية، فأكرمها الله بالذرية الطيبة فى غير أوانها، وانجاها مما أراد بها الجبار وأثابها خيراً على حسن صبرها واحتسابها.

٥- شكر الله على نعمه هو ديدن المؤمن العام:

"رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت" تتنزل رحمة الله وبركاته على آل البيت الذين يتقون الله فيأتمرون بما أمر، وينتهون عما نهى، ويحرصون على طاعة

الله، ويحذرون غضب الله، قال الرازى: "لما صدقت نيتهم أرشدهم إلى القيام بشكر نعم الله، وذكرهم بنعمته بقوله حميد، فإن الحميد هو الذى يتحقق منه الأفعال الحسنة، وقوله (مجيد) إشارة إلى أن الفائق العالى الهمة، لا يحمده لفعله الجميل، وإنما يحمده ويسبحه لنفسه".

٦- المؤمن لا يقنط من رحمة الله:

لا يتسلل اليأس إلى قلب المؤمن، فهو يعلم أنه إنما خلق لغاية محددة، وهدف معلوم، وأن الله راده إليه، وأن كل ما هو حاصل إلى قيام الساعة قد سبق فى علم الله، فهو راض دائماً، مطمئن إلى جنب الله، ومثل هذه الخصال الحميدة أولى الناس بها أنبياء الله الكرام وذووهم الأقربون، وتعجب زوج إبراهيم لم يكن يأساً وإنما دهشة واستغراباً، ذلك أن محنة الجبار وغيرها من المحن التى وجدتها بمصاحبة النبى الكريم -عليه السلام- جعلتها من أهل الرجاء، فلا يليق بمثلها اليأس.

٧- البركة والرحمة تحلان بآل البيت الواحد إن كانوا مؤمنين:

إنما حصل لهم هذا الخير وتلك البركة، لأنهم مؤمنون بالله مصدقون برسالاته، ولو كانوا غير ذلك لما نفعهم أنهم آل بيت خليل الله وأبى أنبيائه -عليه السلام-.

قال الرازى: "وقوله:" "رحمة الله وبركاته عليكم" كلام مستأنف علل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم.

زوج أيــــــوب

لا يذكر نبى الله أيوب -عليه السلام- إلا ويذكر معه الصبر، فهو مضرب الأمثال فى حسن الصبر، وتقبل أمر الله - تعالى - مهما كان هذا الأمر، إذ إنه خير فى كل الأحوال ما دام قدر الله.

صلاح وصبر:

سمى الزوج زوجاً من المشابهة، إذ إن الأزواج متشابهون فى أغلب الأحيان، وسميت "صاحبة" لطول مصاحبتها وملازمتها زوجها، قال تعالى:﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ﴾[٧١] كل شيئين مقترنين، فهما زوجان".

وامرأة أيوب -عليه السلام- هى إحدى النساء اللواتى وحدتها وزوجها مرارة العيش، ونصب الحياة، فكان لها شأن وأى شأن، قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾[٧٢].

"يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ (واذكر) أيضاً يا محمد (عبدنا أيوب إذ نادى ربه) مستغيثاً به فيما نزل به من البلاء يا رب، إنى مسَّنى الشيطان بنصب وعذاب".

﴿ **هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ "أى هذا ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك، والمعنى أن الهبة كانت للرحمة والتذكير". كل هذا النصب والعذاب، والصبر بمعية الزوج الصالحة وبمساندة منها، وتسليم واحتساب.

لمَّةٌ تتنسلك إلى الزوج الصالحة:

يبدو أن زوج أيوب -عليه السلام- قد كانت أقل منه شيئاً يسيراً فى حسن الصبر، بل لعله من الطبيعى أن يمتاز أنبياء الله عن بقية عباده الصالحين فى

---

(٧١) عبس : ٣٤-٣٦.
(٧٢) ص : ٤١-٤٢.

الخصال الكريمة، والسمات الحسنة، يستدل على ما كان من أمر الزوج الكريمة من قول الله تبارك وتعالى فى خطابه لنبيه أيوب -عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٧٣) "الضغث: الحزمة من الحشيش أو الريحان أو ما أشبه ذلك".

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾، معطوف على اركض، أو على وهبنا، أو التقدير وقلنا له: خذ بيدك ضغثاً.

لماذا يأخذ بيده ضغثا؟، قال الرازى: "أما قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثً﴾ فاعلم أن هذا يدل على تقدم يمين منه (أى قسم) أنه حلف على أهله، ثم اختلفوا فى السبب الذى لأجله حلف عليها، ويبعد ما قيل أنها رغبته فى طاعة الشيطان، ويبعد أيضاً ما روى أنها قطعت الذوائب من رأسها لتطعمه، لأن المضطر يباح له ذلك، بل الأقرب أنها خالفته فى بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت فى بعض المهمات فأبطأت فحلف فى مرضه ليضربنها مائة إذا برئ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شىء عليه وعليها".

المفهوم من كلام الرازى - رحمه الله - تضعيفه للقول الذى يُفهم منه تسرب شىء من وساوس الشيطان إلى زوج أيوب -عليه السلام- مع توارد أقوال كثير من المفسرين على ذلك: قال الشوكانى: إن الشيطان أغواها على أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرباً إلى الشيطان" ومثل هذا القول مردود دون أدنى شك.

وجاء كذلك: "لو تقربت إلى الشيطان فذبحت له عناقاً، قال ولا كفاً من تراب"، "كان حلف فى مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برئ، فحلل الله يمينه".

مع أن ترجيح الرازى أنه حلف عليها لتقصيرها وتأخرها عنه فى بعض المهمات، لكننا نرى أن إشارة زوج أيوب -عليه السلام- بمهادنة الشيطان (ولو بشىء يسير) هى الأقرب للسياق، مع التقدير لجهود الرازى وغيره من أئمة التفسير الأفذاذ واعترافنا لهم بالسبق والفضل.

---

(٧٣) ص : ٤٤.

والحق أن الشرك بالله شيء، أما اللمم والضعف فشيء آخر فلا يستلزم من لمة حلت بعبد صالح وقوع الشرك منه وتلبسه بالمعصية والبعد عن أمر الله.

قال تعالى في سياق المديح لعباده الصالحين: **﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾**[74]، هذا في المقام الأول وفي المقام الثاني قد يسأل سائل: ما الذي يحمل على ترجيح هذا القول دون غيره؟ هل من جانب واحد أم أكثر؟

نعم هناك جوانب لذلك الترجيح:

أولها: إن اليمين لا تكون على أمر عارض، وإنما على أمر له قيمته ويستحق أن يحلف من أجله، وأعلم الناس بذلك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وثانيها: إن من سمات المؤمن أن يغضب لله ولحرماته، وأن يكون سمحاً كريم النفس إن انتهكت حرمته، فكيف بنبي كريم؟ أنى له أن يغضب لتقصير زوجه في مهمة عاجلة، فيحلف أن يضربها مائة ضربة مع طول خدمتها له وإحسانها إليه؟

لئن اتفق أكثر الناس على أن أيوب -عليه السلام- قد حلف ليضربن زوجه، واختلفوا في سبب ذلك، فإن أقرب الأقوال إلى الصواب وأجدرها بالاعتبار هو من أن شيئاً من الضعف قد ألمَّ بالزوج الكريمة، إلا أنه لم يفت في عضدها، ولم يترك أثراً في إيمانها، وفي الرخصة التي أنعم الله بها على نبيه الكريم وزوجه، دليل على تكريم الله لها وعفوه، والله وحده أعلم بالصواب.

عِبَر من الإشارة إلى زوج أيوب -عليه السلام:

١. الصبر على الابتلاء شأن الصالحين:

المهم في معرض هذا القصص تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه، وترضى نفوسهم بقضائه فأما قسمه ليضربن زوجه، فرحمة الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه وبلائها به، هذا التيسر وهذا الأنعام، كانا جزاءً على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء.

---

(٧٤) الشورى : ٣٧.

١- الرخص من منن الله سبحانه:

أخذ الرخص سُنة سنَّها رسول الله، وجحدها كفر، والمتهاون فيها إن كان يبغى التقصير فهو آثم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته) والرخصة التى سنها الله لأيوب -عليه السلام- وزوجه باقية فى أمة محمد.

فعن سعيد بن سعد بن عبادة قال: كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها، وكان مسلماً، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله فقال: "اضربوه حده، قالوا: يا رسول الله إنه أضعف من ذلك، إن ضربناه مائة قتلناه، قال فخذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ، فاضربوه ضربة واحدة، وخلّوا سبيله".

٢- الشيطان عدو مضل مبين:

ينبغى الاحتراز منه، والمبالغة فى الاحتياط من وساوسه، فوظيفته الإذلال والغواية، ولقد أقسم منذ بدء الحياة على هذه الأرض، أن يغوى عباد الله، ويزين لهم الآثام والشرور. قال تعالى على لسان إبليس: ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[٧٥]، فكان أيوب -عليه السلام- وزوجه كذلك من عباد الله المخلصين ببركة إيمانهما وإخلاصهما، وصبرهما على البلاء.

٣- حق الزوج عظيم، وخدمته وحياطته فضيلة كبرى:

هذا إن كان قوياً صحيح الجسم ليس بذى علة، كما أن فى خدمة المريض وملاطفته والرفق به أجراً عظيماً ورحمة كبيرة أياً كان ذلك المريض، فإذا اجتمعت فيه الصفتان، المرض المقعد عن خدمة النفس وأداء حقها، مع الزوجية، كان لمؤدية هذا الحق ما لا يعلمه إلا الله من الجزاء الحسن.

أورد السيوطى: "كانت امرأته تسعى إليه مع ما بها من جهد وفاقة" هذا النص وغيره من النصوص التفسيرية، يدلل على ما كانت عليه زوج أيوب -عليه السلام- من الإخلاص والتفانى فى خدمة الزوج والإحسان إليه، والشفقة عليه، والرأفة به.

---

(٧٥) ص : ٨٢-٨٣.

أخت موسى «عليه السلام»

هى أخت النبى الكريم موسى بن عمران -عليه السلام- وابنة المرأة التى أوحى الله إليها أن ترضع ولدها وتلقيه فى الماء، وأخت نبى الله هارون -عليه السلام- أيضاً، فهى تنحدر من بيت نبوى عريق.

وقد ذكرها القرآن الكريم مرتين، كلتيهما فى معرض إظهار منة الله سبحانه على عبده موسى -عليه السلام- مرة فى سورة القصص. يقول تعالى: ﴿ **وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾[٧٦]، ومرة أخرى فى سورة (طه) يقول الله تعالى مخاطباً عبده موسى -عليه السلام- ﴿ **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ** ﴾[٧٧].

يأتى ذكرها عرضاً، من خلال قصة موسى -عليه السلام- تلك القصة التى شغلت حيزاً من كتاب الله -عز وجل- تذكر تلك الأخت بموقف المعاضد المساند، الذى يؤدى دوراً ويحمل أمانة ويسد لبنة فى البناء الإيمانى، بل إنها كانت حيناً من الدهر ربان السفينة التى كتب الله لها النجاة فى بحر الكفر والطاغوت الهائج، وسط أمواجه المتلاطمة وصخوره الصماء.

إن من سمات القصص القرآنى اعتماد الإجمال وترك التفصيل، والإقلال من ذكر الأحداث خاصة الصغائر منها، كأن يترك للقارئ والمتدبر دور فى صياغة الأحداث وترتيب الوقائع، وترك العنان للخيال الإنسانى ليرسم ويحدد ويتعظ ويستنتج، فذكر أخت موسى -عليه السلام- إذن كان ولا يزال أمراً له قيمته، إذ لو لم يكن كذلك، لترك ذكره ككثير من الأمور التى لا تعنى فى البناء العقائدى شيئاً، ولا تسد خلة ولا تحدث نقصا.

---

(٧٦) القصص : ١١-١٢.
(٧٧) طه : ٤٠.

الترقب والتتبع:

بعد أن اتبعت أم موسى وحى الله سبحانه بإلقاء وليدها وتفويض أمرها إلى الله، وبعد أن أصبح فؤادها فارغاً، اضطلعت الأخت بدورها فخرجت تقص أثر أخيها حباً لاستطلاع شأنه وتهدئة لخاطر أمه ورغبة فى الاطمئنان عليه.

قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾[٧٨]، إذ تمشى أختك فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة ترى، كيف اطمأنت الأم إلى قدرة ابنتها على مثل هذا العمل العظيم؟ أليست صغيرة غريرة قد تنفلت منها بضع كلمات تؤدى بالأمور إلى المزلق الخطير الذى طالما حذرت منه؟ وكيف رضيت الصغيرة بهذه المهمة؟ ألم تضطرب وتتعثر؟ ألم يرهبها جنود الطاغية وأعوانه؟

كأنى بالأم والبنت قلقتان برغم اتصالهما بالله، وتصديقهما بوعده، إلا أن للبشر طبائعهم الأصلية بحكم جبلتهم، تتراءى فى الخيال صور شتى للفتاة الصغيرة تخرج متحسسة متلمسة متخفية، حذرة تحتال حتى لا يتنبه إليها أحد، يختلج فؤادها الصغير كلما تقدمت خطوة واحدة، فهى فى طريق وعر شائك تجتهد لمواضع أقدامها لئلا تدميها الأشواك فتؤخرها عن إنجاز المهمة.

قال تعالى: ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[٧٩] قولها ﴿ قُصِّيهِ ﴾: أى اتبعى أثره، "فبصرت به عن جنب: أى عن بعد تبصر ولا توهم أنها تراه، يقال: بصرت به عن جنب أى عن بُعد، وعن جنابة إذا نظرت إليه عن بعد".

إذن فقد أحبكت الخطة وتم تقسيم الأدوار، وحظيت الأخت بنصيب وافر منها، فراحت تتبع وتترقب وتبحث وتستقصى، تحققت بالنسبة لها الغاية، وقضت حاجة الأم بقص الأثر ومعرفة الحال، وبذلك أنجزت المرحلة الأولى من المهمة.

"لقد كانت تراقب سير التابوت بطريقة خفية، والتابوت يسير على وجه الماء، وهى تسير على شاطئ اليمِّ، ولا تنظر إلى الجانب الآخر، فلو رآها أحد الراصدين لما شكَّ فيها، ولما ربط بين سيرها وسير التابوت، ولظن أنها فتاة تسير فى طريقها إلى أمر ما".

---

(٧٨) طه : ٣٩-٤٠.

(٧٩) القصص : ١١.

عرض المساعدة وكتمان الغرض:

لم تعد الفتاة إلى ذويها بخبر أخيها الوليد وإنما تقدمت فتفحصت الموقف وعالجته من جميع جوانبه، فرأته يحتمل مزيداً من التدخل من يدرى؟ لعلها تحقق مكسباً جديداً.

ثم إن الوصول إلى موقع ما، لدى شخص أو جماعة لا بد فيه من بذل نفع، حتى يلقى الطالب آذاناً صاغية وقبولاً لدى المطلوبين، لقد أحسنت أخت موسى صنعاً حين أدلت بدلوها، وظهرت بمظهر الناصح الذى يبغى مد يد العون.

قال تعالى على لسان أخت موسى -عليه السلام-: ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾[٨٠]، أسلوب تشويقى يحمل بشرى لأولئك القوم الذين أعياهم البحث عن ظئر للوليد المحبوب، ثم إنه أسلوب الواثق مما عنده فهى لم تشر إليهم إشارة عابرة ولم تتحدث إليهم مجرد حديث، وإنما تبدى استعدادها لأن تدلهم على أهل ذلك البيت، الذين لن يرضعوه فحسب، وإنما سيكفلونه، أى سيحرصون عليه ويقومون بأمره، وهم له ناصحون فى كل خير.

قال صاحب "الظلال": "وذهبت أخته تقص خبره فى الطريق والأسواق، فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التى ترعاه، وتبصر به عن بعد فى أيدى خدم فرعون يبحثون له عن ثدى للرضاع، إن القدرة التى ترعاه تدبر أمره وتكيد به لفرعون وآله، فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يحبونه، وتجعلهم يبحثون له عن ظِئْر ترضعه، وتحرك عليه المراضع لتدعهم يحتارون، وهو يرفض الثدى كلما عُرِض عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول! حتى تبصر به أخته فتعرفه، وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع فتقول: ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾؟ فيتلقون كلماتها وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو الطفل الصغير المحبوب".

"لقد رجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير"، لقد أدت مهمتها وكان مآل الأمور قرة عين لها ولأمها ومذهباً لحزنها على فراق الوليد.

---

(٨٠) القصص : ١٢.

عبر من ذكر أخت موسى -عليه السلام

من العبر المستقاة فى هذا السياق:

١- ضرورة الانضمام إلى المركب الإيمانى:

فأخت موسى -عليه السلام- يبدو من خلال العرض القرآنى للقصة أنها كانت حديثة السن، أى من ذلك الجيل الذى توكل إليه، أمثال تلك المهمات، فلو كانت كبيرة لخشيت أمها عليها من كيد الكائدين، أو لخشيت من لفت الأنظار إليها، لذا بعثت بها، ولم تذهب الأم بنفسها، ليبدو الأمر عفوياً ولا تخطيط له، ولا ترتيب وراءه، لقد انخرطت فى الكتيبة الإيمانية، فكانت جندياً موفقاً معطاء، أحسن أداء مهمته، وعرف كيف يؤدى دوره، مع حداثة السن وقلة التجربة.

"تتبعها وترقبها عن بعد، ومن ثم إدلاؤها بما عندها، دليل على حرصها على إتقان فعلها، والوصول بالأمور إلى غاياتها".

٢ ـ الدقة والذكاء:

"كانت أخت موسى اللبيبة الذكية تراقب كل شىء بفطنة ووعى، وكانت مع المجتمعين حول أخيها، وشاهدت امتناعه عن جميع المراضع، فتدخلت باللحظة المناسبة، وعرضت عليهم خدماتها، لإنقاذ ابن فرعون بالتبنى"، لقد مرت مهمتها الحرجة بمرحلتين إحداهما الترقب وأخراهما: التدخل ولو لم تكن على درجة عالية من الحصافة والذكاء، لما نجحت كل هذا النجاح.

٢- السرية والكتمان:

فالركيزة الأولى هى السرية التامة، والكتمان البالغ، والإيجاز فى قضاء المهمات، ولو لم تكن أخت موسى -عليه السلام- كاتمة للأمر جادة فى سريّته لانكشف أمرها وأمر ذويها، ولسهل على الأعوان والعيون الكثيرة المبثوثة فى كل ركن وزاوية إفساد الخطة برمتها.

هذه عجالة لسيرة قرآنية لبعض جند الله سبحانه "وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر".

ابنتا الرجل الصالح

هما المرأتان اللتان سقى لهما موسى -عليه السلام- عندما فرَّ من فرعون وزبانيته تلقاء مدين، وقد ذُكرتا فى كتاب الله فى سورة القصص.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٨١).

نساء كثيرات صاحبن مولد موسى -عليه السلام- وإلقاءه فى اليمِّ وإرضاعه، نشأته وتربيته، ثم نجاته من إيدى الظالمين، بعد فراره منهم، ثم زواجه -عليه السلام- ثم عودته إلى فرعون هادياً ونذيراً.

وقد كان لابنتى الرجل الصالح ولإحداهما بالتحديد دور فى حياة هذا

(٨١) القصص : ٢٢-٢٩.

الداعية العظيم، الذى بعثه الله إلى أمه اشتهرت بالعوج والضلال، وتفننت بالمعاصى والآثام، وأثقلت كاهل أنبيائها - صلوات الله وسلامه عليهم - وسامت البشرية سوء العذاب، فتركت أثراً مريراً، فكان أبناؤها أئمة فى البغى والضلال بدلا من أن يكونوا أئمة هدى وحق ورشاد.

بين العفة ومزاحمة الرجال:

إن للمرأة مكاناً اعتيادياً طبيعياً ألا وهو البيت، المملكة التى هى مصنع الرجال ومنبت العز والفخار، حيث يتخرج الأفراد أصحاء الجسوم أسوياء العقول والقلوب، هذا إذا كانت أركان ذلك البيت قائمة على ما يُرضى الله من قول وعمل.

ولكن، قد تضطر المرأة لأن تغادر مملكتها، إلى حيث مواطن العمل واجتلاب الرزق مع أنها متحرجة يشق عليها ذلك الأمر، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وهذا ما كان من أمر ابنتى الرجل الصالح فقد خرجتا إلى عمل فرضته طبيعة الحياة وقسوة الظروف، من خلال هذا العمل الذى طالما ضاقتا به، وتمنيتا من يكفيهما شأنه، كان لقاؤهما بنبى الله الكريم موسى -عليه السلام- وربما كان ذلك اللقاء المبارك ببركة ما كان منهما من مجاهدة واحتمال لذلك العمل.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ "هو الماء الذى يستقون منه، وجد فوق شفيره ﴿ **أُمَّةً** ﴾: جماعة كثيرة العدد ﴿ **مِّنَ النَّاسِ** ﴾ من أناس مختلفين ﴿ **وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ** ﴾ فى مكان أسفل من مكانهم ﴿ **امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾ والذود: الدفع والطرد. قوله: تذودان: أى تحبسان (على اقوال):

القول الأول: تحبسان أغناهما، واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه.

أحدها: لأن على الماء من كان أقوى منهما فلا تتمكنان من السقى.

ثانيها: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء.

ثالثها: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم.

رابعها: لئلا تختلطا بالرجال.

القول الثانى: كانتا تذودان عن وجهيهما نظر الناظر لئلا يراهما.

القول الثالث: تذودان الناس عن غنمهما.

القول الرابع: تحبسانها (الأغنام) عن أن تتفرق وتتسرب.

جوهر الأقوال متقارب، ولا تضاد بينها، فالذود قائم (بالنص)، أما أسبابه فقد تكون للحبس وقد تكون خشية الاختلاط بأغنام الغير، وغير ذلك كثير، والصور تبين بجلاء فتاتين والأقرب إلى السياق أنهما فى عمر الشباب، ذلك العمر الحرج بطبيعته بالنسبة إلى الفتاة، فكيف إذا انضم إلى حرج العمر حرج العمل؟

يدور فى خلدنا خيال تلكما الفتاتين، أنهما مضطربتان، يخفق قلباهما، يعلو وجهيهما حمرة الحياء الفطرى، تبغيان إنجاز المهمة بالسرعة الممكنة وبأقل قدر من الاختلاط والاحتكاك فمالهما ولهذا الجمع الذى ما أخرجهما إليه إلا ضرورة العمل لتحصيل الكسب؟

هنا أمر يستدعى الانتباه بالنسبة لموسى -عليه السلام- فقد جاء فى تلك اللحيظات الثقيلة ورأى ما رأى، قوم يستقون على الماء ومن دونهما امرأتان تذودان، أحس بحاجتهما إلى مروءته فأقبل يسألهما من تلقاء نفسه (ما خطبكما)، والخطب للشأن العظيم، كأنه يقول: أى خطب أخرجكما إلى ما أرى.

قال الرازى: ما خطبكما أى ما شأنكما، وحقيقة ما مخطوبكما، أى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطباً كما يسمى المشئون شأناً.

سؤال موجز، وكذلك إجابة موجزة محددة، فهذا شأن الفطر السليمة والنوايا النقية، فالفتاتان تحادثان رجلاً أجنبياً لا عهد لهما به، وكذلك النبى الكريم يحادث فتاتين أجنبيتين لا ينبغى له أن يحدثهما، وإنما حمله على ذلك ما رآه من حالهما، فلم يرض إيمانه ولم تحتمل مروءته ما رأى من أمرهما، فسألهما ليحمل عنهما حرج ذلك الموقف، "قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير"٠٠"امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال، وأبونا لا يقدر أن يحسن ذلك من نفسه، ولا يسقى ماشيته، فنحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا اسقينا ثم انصرفتا" أجابتا عن التساؤل المباشر، ثم عادتا إلى أصل السؤال، فهما تبغيان السقيا، إلا أنهما تنتظران فراغ القوم فإن كانتا قد خرجتا إلى العمل، فهما تحرصان على تحجيم الاختلاط قدر استطاعتهما من باب: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ ثم توضحان القدر الذى دفعهما إلى الخروج برمته فالوالد شيخ كبير لا طاقة له بهذا العمل، فلم يبق لهما إلا القيام به بنفسيهما.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ كفاهما مؤنة السقى والمزاحمة، فترك فى نفسيهما أثراً طيباً كان له شأنه، قال تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾.

وكما حرصتا على الإجابة الموجزة الشافية، حرصتا كذلك على تبليغ أبيهما بما فعله ذلك الرجل معهما من خير ومعروف، وهكذا المؤمن دائماً يعرف لأهل الفضل فضلهم ويحرص على رد الإحسان إلى المحسنين.

"فى الكلام حذف، والتقدير: فذهبتا إلى أبيهما من غير إبطاء فى السقى، وقصتا عليه أمر الذى سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له ﴿ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾: فى موضع الحال: أى مستحية متخفرة".

لم يعين النص القرآنى هوية أى من المرأتين أرسل الأب، وكونها الكبرى أو الصغرى، إنما هى إحدى ابنتى الرجل الصالح، جاءت إلى موسى -عليه السلام- تحمل رسالة له من أبيها، وقد حفلت كتب التفسير (القديم منها خاصة) بذكر تفاصيل عن هوية المرأة واسمها إلى غير ذلك مما لا ورود له ولا إشارة إليه من نص الكتاب ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾.

وهنا أيضاً وضوح وإبانة، فالذى يدعوه إليه هو الوالد، أما سبب الدعوة فهو ليجزيه أجر ما سقى لابنته، فهى لم تنتظره أن يسألها ما الذى جاء بك؟ وإنما بادرته وألقت إليه برسالة أبيها، وأوضحت سبب الدعوة لتختصر الحديث بينه وبينها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فهى مع حيائها واضحة لا تتلجلج ولا ترتجف أوصالها، فالمؤمن واثق بربه، واثق بنفسه، باطنه كظاهره، صادق مع ذاته، لا يبخس الأمور حقها ولا يحملها فوق ما تحتمل، إنما الإيمان هو عقيدة التوازن، وجاء كذلك فى بعض التفاسير كلام كثير عن مشى موسى -عليه السلام- خلف المرأة التى جاءته ثم طلبه إليها أن تسير خلفه لئلا ينكشف شىء من جسدها فينظره، هذا كله أيضاً لم يثبت فى كتاب الله أو صحيح السنة، وإنما هو ضرب من المدسوس السقيم الذى لا نفع يرجى منه، ولا يليق بالقصص القرآنى الذى جاء يحمل هدفاً سامياً وغاية كريمة.

رغبة فى الاستقرار يعقبها نكاح ميمون:

لقد عادت المرأة إلى أبيها بالرجل غريب الدار والأهل، كريم الخلق، طاهر القلب، وقد جاء ملبياً دعوة الرجل الصالح راغباً فى التعرف إلى شخصه

الطيب، فلعل عنده بعض الهدوء والدعة، وربما لديه من الطمأنينة بعد السفر المضنى وطول التشرد والأرق وقبل هذا كله فإن لأهل الصلاح والتقوى أريحية خاصة ونكهة مميزة يكرمهم الله فيما بينهم، فأرواحهم متآلفة، وقلوبهم تستشعر تلك الرابطة الندية الوشيجة (رابطة الإيمان) فهم متقاربون متحابون متعاضدون، وإن كانت أنسابهم متباعدة.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٨٢]، لقد أخبر موسى -عليه السلام- الرجل الصالح بخبره فطمأنه وبشّره بالنجاة من القوم الظالمين، هنا رأت إحدى المرأتين لها ولأختها مخرجاً مما تعانيانه من مشقة العمل ومزاحمة الرجال وحرج الرعى، ثم فرصة لهذا الغريب الطريد، طيب الخلق كريم الطباع، ثم مدعاة لطمأنينة أبيها (الشيخ الكبير) على أمواله وعلى ابنته، فلم تتردد فى أن تدلى بما عندها لأبيها فقالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾: (أى: استأجره ليرعى لنا الغنم)، وجملة ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى، أى أنه حقيق باستئجارك له كونه جامعاً بين خصلتى القوة والأمانة.

وقولها: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ كلام حكيم جامع لا يزداد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته وأمانته.

هنا برز الوالد، ليعطى درساً تربوياً للأولياء فى كيفية اختيار الأصهار لأنفسهم، والأزواج الأكفاء لبناتهم وأخواتهم، لقد رضى الرجل الصالح، بدين موسى -عليه السلام- وخلقه وأمانته ومروءته، فقد سقى لابنتيه، وقد فرَّ بدينه من الطواغيت المتألهين.

وقد قصَّ عليه القصص، وكذلك لثناء ابنته عليه، ولربما يكون الوالد قد استشعر من ابنته رغبة فى الزواج من ذلك الرجل الغريب الطريد فلم لا يعرض عليه المصاهرة؟ فيكون قد اختار لابنته ولذلك الرجل خيرى الدنيا والآخرة،

---

(٨٢) القصص :٢٥ .

وغرس بذرة طيبة أصيلة فى كرم المجتمع الإيمانى الربانى، وأقام عمود خيمة تظل أسرة صالحة تنجب صالحين يرثون الدعوة ويحملون اللواء.

قال أبو حيان عن الرجل الصالح:

"رغب فى مصاهرته (أى موسى -عليه السلام) لما وصفته به (أى ابنة ذلك الرجل) لما رأى فيه من عزوفه عن الدنيا وتعلقه بالله، وفراره من الكفرة... ثم يهون عليه فى عرضه، فهو أمام رجل غريب فقير لا يملك من متاع الدنيا شيئاً، فيطلب صداقاً لابنته عملاً يؤديه إليه ذلك الرجل القوى الأمين، وهذا الشق الآخر للمنهج التربوى فى اختيار الأصهار يخبر السياق بعد ذلك عن قبول موسى -عليه السلام- لعرض الرجل الصالح وعن إتمامه للأجل (أجل الإجازة) ثم مسيرة بأهله بعد انقضاء المدة.

قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾(٨٣).

"وكان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فبينما هو كذلك رأى ناراً تضىء على بعد فقال امكثوا أنى آنست ناراً، حتى أذهب إليها أو آتيكم بقطعة منها لعلكم تستدفئون بها من البرد".

فقد رافقت - ابنة الرجل الصالح - زوجها موسى -عليه السلام- فى طريق عودته إلى موطنه وتوقفت معه عندما أراد أن يذهب ليأتى بخبر أو بجذوة من النار للاستدفاء.

أما دليل عودتها معه فهو من نص القرآن الكريم فى سورة النمل. قال تعالى:

﴿ **إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ (٨٤).

وأهل الرجل فى اللغة زوجه، أما خطابه -عليه السلام- بصيغة الجمع

(٨٣) القصص : ٢٩.
(٨٤) النمل : ٧.

(امكثوا) (سآتيكم) فـلإمكانية وجود أحد معهمـا كالتـابع أو الولد إلى غيـر ذلك، والله وحده أعلم بالصواب.

عظات وعِبَر من ذكر شأن المرأتين:

١- البعد عن مواضع الشبهات، واجتناب الريب:

فقد كانتا (المرأتان) فى موضع غيـر موضع القوم تذودان ولم يكن عـجزهمـا عن مـزاحمة الرجـال هو الدافع وحده لتأخرهمـا، وإنمـا رغبتهمـا فى النأى عن الرجـال، حـيث تكثـر العـيـون وتظهـر الفتن، ويسـتـبـد السـفـهـاء وتعلو وسـاوس الشيطان وأعوانه.

كذلك عند طلب إحداهمـا لأبيهـا أن يسـتـأجـر موسى -عليـه السـلام- دلالة أخرى على الرغبة فى اجتناب تلك المواضع والبعد عنها.

٢- العِبْـرَة الثانيـة: الحـيـاء والعفـاف من عـلامـات الإيمـان، ومن شـيم الكرام الصالحين

وهو كـذلك من نتـاج الفطرة السليمـة، ومن إيحـاءات التكوين السـوى، والمرأة أجدر بالحـيـاء من غيـرهـا، ذلك بحكم تركيـبـهـا الفسـيولوجى، وبنائهـا الداخلى والخـارجى، الروحى والجسـدى منه معـاً، على أن يكون ذلك حـيـاء قـد أفـرزته التربية الإيمانيـة القويمة، والنشـأة الطيبـة السليمـة، لا أن يكون حياء مـصطنعاً أظهـر لتحـقـيق عـرض أو دفع مـضـرة، لا يلبث أن يزول ليـحلَّ مـحلَّه السـفـور والجراءة اللامحمودة، إنما هو حياء حقيقى، وخوف من الله عظيم، عظمة البناء الإيمـانى فى تلك النفس الحيية العفيفـة، فمرده الوازع الداخلى، وسلطانه على الجوارح كبير.

يقـول صـاحب "الظلال": "لقـد جـاءته" تمشى على اسـتـحـيـاء "مـشـيـة الفتـاة الطاهرة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجـال، "على استحياء" فى غير ما تبـجح ولا تبـدل ولا تبـرج ولا إغواء، جـاءته لتنهى إليه دعوة فى أقصـر لفظ وأخصـره وأدله، يحكيه القـرآن بقـوله: "إن أبى يدعوك ليجـزيك أجـر مـا سـقيت لنا" فمع الحيـاء الدقة والإبانة والوضوح، لا التلجلج والتعـثـر والربكة، فـالفـتـاة القويمـة تستـحى بفطرتهـا عند لقـاء الرجـال، ولكنهـا لثقتهـا بطهـارتهـا واسـتقـامتـهـا لا تضطرب، الاضطراب الذى يطمع ويغرى ويهيج، وإنمـا تتحدث فى وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد".

فإن للحياء موقعه وحجمه، فإن انحرف عن موضعه، أو تجاوز حجمه انقلب إلى النقيض، وصار باباً واسعاً لوسوسة الشيطان، ومطمعاً لذوى النفوس المريضة، الذين ابتلى الله بهم عباده الصالحين، ليمحص إيمانهم وليضع قوة احتمالهم على المحك (وهو أعلم بهم) لتكون الحجة (بقضاء الله وقدره) لهم أو عليهم يوم يبعثون.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٣- الفراسة ودقة النظر:

هى فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده، ومنه يتفضل بها على بعض خلصائه، يؤخذ هذا من قول إحدى المرأتين: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ فقد رأت نبى الله موسى -عليه السلام- لفترة يسيرة وجيزة، ومع ذلك فقد استنتجت من تلك الرؤية أخص خصلتين يعنى بهما والدها الشيخ الكبير حيث أشارت عليه باستئجاره.

قال عبد الله بن مسعود -(رضى الله عنه)- "أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حيث تفرس فى عمر، وصاحب يوسف حين قال (أكرمى مثواه)، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾.

امرأة العزيز ونسوة المدينة

قصة يوسف -عليه السلام- لها ميزة واضحة عن بقية القصص القرآنى فقد عُرضت بتمامها بجميع مراحلها فى سورة واحدة من كتاب الله شغلتها كلها، وتسمت باسم ذلك النبى الكريم، منذ رؤياه فى صغره وما أعقب ذلك من ابتلاءات متلاحقة حتى اجتماع شمله بذويه وتأويل رؤياه التى جعلها ربه حقاً.

لقد كانت إحدى محطات ابتلاءاته المتلاحقة -عليه السلام- ولعلها الأشد عليه ما كان من شأن امرأة العزيز معه، وما كان من شأن بطانتها من نسوة المدينة، ومن كيدهن به -عليه السلام- لقد أكثر أهل التفسير والقصاص الخوض فى هذا الشأن وتشعبت الآراء فى طبيعة ما كان من يوسف -عليه السلام-، ومن زوج العزيز، ثم من ورائها بطانتها (نسوتها).

قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[٨٦] ثم عاد السياق إلى ذكرها ونسوتها على لسان يوسف -عليه السلام-: قال تعالى: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[٨٧] إلى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٨٨].

كأن قصة يوسف -عليه السلام- ومنها ذكر امرأة العزيز ونسوتها كل متكامل لا يقبل التجزئة، بل هكذا أراد له الله -عز وجل-، أن يكون عرضه فى موضع واحد من الكتاب الكريم، ربما لتكون عظاته وفوائده منسقة متسلسلة على نسق واحد عظيم جليل.

---

(٨٥) يوسف : ٢٣.
(٨٦) يوسف : ٣٢.
(٨٧) يوسف : ٥٠.
(٨٨) يوسف : ٥١.

كما أن لهذه الجزئية من حياة النبى الكريم ميزة أخرى عن بقية القصص، إلا وهى التعرض لحال هذا الداعية فى شأن من أخص شئون الحياة، وفى موقف حرج على شفا هاوية لا يعصمهم من الانزلاق فيها إلا رحمة الله ولطفه وتدبيره.

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٨٩] لقد أحسن -عليه السلام- إلى نفسه وإلى من حوله ومنهم امرأة العزيز نفسها، فأحسن الله إليه وأكرمه وعصمه وأيده.

المراودة وتغليق الأبواب والاستعصام من جانب يوسف -عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[٩٠].

"المعنى أنها راودته عما أرادته مما تريد النساء من الرجال، فعلم بتركه ذكر الفاحشة نفسها وما راودته عليه، مفعول راودته محذوف، ولكن المقام يفيد أنها راودته على ارتكاب الفاحشة".

"لما بلغ أشده راودته التى هو فى بيتها عن نفسه (امرأة العزيز)، أى أحبّته وغلقت المرأة أبواب البيوت عليها وعلى يوسف لما أرادت منه، وراودته عليه، باباً بعد باب".

"وإنما قال (التى هو فى بيتها) ولم يقل امرأة العزيز، قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة للمحافظة على الستر عليها (وغلّقت الأبواب) فى هذه الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال غلق الأبواب، ولا يقال (غلق الباب) بل يقال أغلق الباب".

(وغلَّقت الأبواب "السبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة، لا سيما إذا كان حراماً ومع قيام الخوف الشديد أو الحرص الشديد على عدم فراره منها وقالت (هيت لك)" أى هلم وأقبل" وهى كلمة حث وإقبال على الشىء" وقيل (هيت لك) تهيأت لك".

---

(٨٩) يوسف : ٥٦.
(٩٠) يوسف : ٢٣.

كلا المعنيين يسد الخلة، إذ إن روح السياق، تشير إلى طلب امرأة العزيز من يوسف -عليه السلام- ما أرادت منه، والطلب هنا فيه حرص على تحقيق المطلوب وبذل لكثير من المغريات فى سبيل تحصيل ذلك الشىء: (قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون).

"أى أعوذ بالله معاذاً مما تدعيننى إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله - تعالى - للخلاص منه".

(إنه ربى أحسن مثواى) الضمير فى إنه الأصح أنه يعود على الله تعالى، أى: الله ربى أحسن مثواى إذ نجَّانى من الجبِّ، وإقامتى فى أحسن مقام، وإما أن يكون ضمير الشأن، وعنى بربه سيده العزيز (فلا يصلح لى أن أخونه) وقد أكرم مثواى وائتمننى، إذ لا يطلق نبى كريم على مخلوق أنه ربه ولا بمعنى السيد؛ لأنه لم يكن فى الحقيقة مملوكاً له، (أنه لا يفلح الظالمون) أى المجاوزون الإحسان بالسوء، استعاذ أولاً بالله الذى بيده العصمة وملكوت كل شىء، ثم نبته على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذى سبق منه لا يناسب أن يجازى بالإساءة ثم نفى الفلاح عن الظالمين.

إذن فقد أقرت كتب التفسير جواز الوجهين من كون الضمير فى قوله يوسف -عليه السلام- وكذلك فى معنى كلمة (ربى) الله -. عز وجل -. للأسباب التى ذكرها أبو حيان الأندلسى، ولأن أصل الفضل والإحسان كله بيد الله -. عز وجل -. ومنه إحسان الخلق إلى بعضهم بعضاً، فإن هذا لا يتم إلا بإرادة الله وعونه، مع أن فى قول يوسف -عليه السلام- إشارة إلى إحسان عزيز مصر له وإكرامه إياه بقوله (إنه لا يفلح الظالمون) إذ إنه بقبول عرض امرأة العزيز يكون ظالماً غير واضع للأمر فى محلِّه، ذلك أن زوجها كفله وضمه وأحسن إليه فلا يليق به الخيانة مع آل بيته.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾[91].

كثرت الأقوال وتشعبت فى هذه الآية، منها ما لا يليق بمقام الأنبياء وعصمتهم، ومرد هذه الأقوال الإسرائيليات والأخبار المكذوبة، يقول الطبرى: "وأولى الأقوال بالصواب أن يقال أن الله جلَّ ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة

(٩١) يوسف : ٢٤.

العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله، زجرته عن ما هم به من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن تكون الوعيد فى الآيات التى ذكرها الله فى القرآن على الزنى، ولا حجة للعذر قاطعة بأى من ذلك، والصواب أن يقال فى ذلك، ما قاله الله تعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه".

أما ابن كثير فمع عرضه لقول ابن جرير إلا أنه يورد أقوالاً أخرى فيقول: "المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، وقيل: همَّ بضربها، وقيل تمناها زوجة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ "أى فلم يهم بها". عن أبى هريرة -(رضى الله عنه)- قال: قال النبى: "إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم".

(لولا أن رأى) "لولا حرف يمتنع له الشىء لوجود غيره، و(أن رأى) فى موضع رفع لأنه مبتدأ، ولا يجوز إظهار خبره بعد (لولا) لطول الكلام بجوابها، وقد حذف خبر المبتدأ هنا والجواب معاً (وهمَّ بها) جواب لولا، لأن جواب لولا لا يتقدم عليه ولقد بسط الرازى مساحة جيدة لهذه الجزئية فأورد مسائل فيها واستعرض الأقوال التى وردت بشأنها واستقصاها، وخرج بثمرة طيبة، وأجاب إجابة شافية قاطعة جامعة مانعة - جزاه الله خيراً- فقال: " أعلم أن الدلائل على وجوب عصمة الأنبياء -عليه السلام- كثيرة، ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم -عليه السلام- فلا نعيدها، إلا أننا نزيد هنا وجوها: منها: أن الزنى من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب، وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب، وأيضاً الصبى إذا تربى فى حجر إنسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبى على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التى نسبوها إلى يوسف -عليه السلام- كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع، ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى النبى -عليه السلام- ثم أنه تعالى قال فى غير هذه الواقعة: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ولا شك أن الفاحشة التى نسبوها إليه أعظم وأفحش أقسام الفاحشة فكيف يليق برب العالمين أن يشهد ليوسف

فى عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه متهم بأعظم أنواع السوء والفحشاء.

وأعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة، يوسف -عليه السلام- وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود ورب العالمين شهدوا ببراءته عن الذنب وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ لم يبق توقف فى هذا الباب، فثبت بهذه الدلائل أن يوسف -عليه السلام- برىء مما يقوله هؤلاء الجهَّال.

كما أن المتدبر للآيات الكريمة يستنتج أن الاستعاذة بالله واستبعاد ارتكاب الفاحشة من قبل يوسف -عليه السلام- قد تقدم على الهمِّ، فيوسف -عليه السلام- قد كان طاهراً بريئاً منذ اللحظة الأولى ولم يكن وحاشاه عن ذلك - متخاذلاً- أو مائلاً لشىء من المعصية قط، فمن خلال الآيات الأولى يستخلص المسلم صاحب الحس السليم والفهم الإيمانى براءة يوسف -عليه السلام- وبعده عن المعصية، ومع مطالعة شهادة الشهود وإصرار يوسف على ظهور البراءة - من مجرد الهمِّ أو حديث النفس - قبل الخروج من السجن، يزداد الذين آمنوا إيماناً، ويحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، أما ماهية ذلك البرهان، فقد كفانا - إمام المفسرين الطبرى - رحمه الله تعالى - شأنه فقال "إن ذلك البرهان جائز أن يكون صورة يعقوب عليه السلام أو غيرها، إذ لا تحديد لماهية ذلك البرهان ما دام الدليل لم يقم على تحديد".

إفك جرىء وادِّعاء كاذب:

أسقط فى يد امرأة العزيز، لم ينفع مع يوسف -عليه السلام- بذل الجمال وإبراز الحسن لقد استعاذ بالله واستعصم بحبله فلم يتحقق لها ما تريد، وضبطت متلبسة بالجرم فضاعفت من بغيها وأضاقت ظلماً إلى ظلم.

قال تعالى: ﴿ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[٩٢].

"هذا من اختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى، وذلك أنه هرب منها فتعاديا، فأدركته قبل أن يخرج (وقدت قميصه من دبر) (أى من خلفه)، قبضت فى أعلى قميصه فتخرق القميص عند طوقه، ونزل التخريق إلى أسفل القميص".

---

(٩٢) يوسف : ٢٥.

"وألفيا سيدها لدى الباب"، (ألفيا) "وجدا" (سيدها): "أى زوجها وهو (فيعل) من ساد يسود، وشاع إطلاقه على المالك وعلى الرئيس، وكانت المرأة إذ ذاك تقول لزوجها: سيدى، ولذا لم يقل سيدهما (لدى الباب) أى عند الباب وجداه يريد أن يدخل، قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ وفى الكلام حذف تقديره: فرابه أمرها وقال ما لكما؟ فلما سأل وقد خافت لومه، أو سبق يوسف بالقول، بادرت أن جاءت بحيلة تبين فيها تبرئة ساحتها من الريبة، وغضبها على يوسف، ولم تصرح باسم يوسف، بل أتت بلفظ عام وهو قولها: (ما جزاء من أراد) وهو أبلغ فى التخويف، وما نافية (على الظاهر) ويجوز أن تكون استفهامية أى: أى شىء جزاؤه إلا بالسجن؟ وبدأت بالسجن إبقاء على محبوبها، ثم تطرقت إلى العذاب الأليم".

رأت زوج العزيز ما رأت من عصمة الله ليوسف -عليه السلام-، ومن إكرام الله له ومن أنعمه الكثيرة عليه ومنها العفة والتقوى والإحصان، فلم تقصر، ولم تستدرك نفسها فتفىء إلى أمر الله، بل بالغت فى عدوها وبغيها، وراحت تقلب الحقائق، وتشوه الصورة الناصعة النقية، وتدّعى زوراً وبهتاناً لنفسها العفة والرغبة فى الطهارة، وتتهم الطاهر المطهر بما هو فيها، بل وتشى به وتقرر سجنه وتعذيبه لا لشىء، إلا لأنه سمح النفس كريم الطباع عالى الهمّة من بيت نبوة، سليل نسب قد اصطفاه الله على العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

شهادة حق إكراماً ليوسف -عليه السلام-:

قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٩٣].

"يقول تعالى ذكره: قال يوسف لما قذفته امرأة العزيز بمقذفة من أرادت الفاحشة منه مكذباً لها فيما قذفته به" وعن الشاهد يقول القرطبى: (وشهد شاهد من أهلها) لأنهما لما تعارضا فى القول احتاج الملك إلى شاهد ليعلم

(٩٣) يوسف: ٢٦-٢٧.

الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها، أى حكم حاكم من أهلها، لأنه حكم منه وليس بشهادة، والشاهد رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها، فقال: قد سمعت الاستبداد والجلبة من وراء الباب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدام صاحبه فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف". هناك قول آخر فى شأن الشاهد: "أنه كان صبيًّا، وأنه ذُكر من تكلم فى المهد، فذُكر أن أحدهم صاحب يوسف".

وقد روى هذا الحديث فى مسند أحمد وأشار إلى ضعفه وكذلك ذكر ابن حجر فى الشأن نفسه: "على أنه اختلف فى شاهد يوسف، فقيل كان صغيراً، وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير".

ثم يستدرك القرطبى فيقول: "ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف -عليه السلام- تغنى عن أن يأتى بدليل فى العادة، لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة".

وشهادة الحق ليوسف -عليه السلام-، هى بذاتها شهادة خزى وتكذيب لامرأة العزيز من جانب آخر لأمرين:

أحدهما: إن الشاهد استدل بقرينة واضحة لا سبيل إلى إخفائها أو التلاعب فيها، وهى قدُّ القميص، وجاء التعقيب مباشراً تقريراً لجرم المرأة (إنه من كيدكن).

ثانيهما: إن الشاهد من أهلها، فهو أبلغ فى الملامة وأظهر لشناعة الفعل، فذوو المرء هم أحرص الناس على حمايته والذب عنه فكيف إذا كانوا هم من أقاموا عليه الشرط واظهروا حرج موقفه؟

عِبَر من شخصية امرأة العزيز ونسوة المدينة:

هى ثمار يانعة مباركة طيبة تحملها أشجار الصلاح والفضل والتقوى، فى بستان النبوة، تربتها العصمة، وسقاؤها الطهارة، ونسيمها نفحات من جنان الخلد التى وعد الله بها عباده الأخيار المخلصين، عظات جمة وعبر قيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

١ ـ **العِبْرَة الأولى:** البعد عن دين الله يجعل المرء عبداً لشهواته ولذاته فيشقى فيهلك نفسه وتستعبده ذاته فترديه فى الهاوية بدلاً من أن يسيّرها فى سبيل الله فتسير هادئة مطمئنة إلى جنب الله فينجو بها إلى شاطئ الأمن والهداية والمغفرة.

٢ـ **العِبْرَة الثانية:** الكذب مآله إلى الاندثار:مهما بلغ سلطان الكاذب ومهما علا جبروته، فسيأتيه الله من حيث لم يحتسب ويقذف فى قلبه الرعب، ويظهر كذبه، قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿ **الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِه** ﴾ "الدرس المستفاد لا يتغير، أن العاقبة الحميدة للأمانة، والعاقبة الذليلة للخيانة".

وهكذا يتجلى العنصر الإنسانى فى القصة، التى لم تسق لمجرد القص إنما سيقت للعبرة والعظة، وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة، ويرسم التعبير الفنى فيها خفقات المشاعر، وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رفيقاً شفيفاً، فى واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعيات فى مثل هذه النفوس، فى ظل بيئتها، ومؤثرات هذه البيئة كذلك.

٣ ـ **العِبْرَة الثالثة:** الأراجيف تنخر أساس المجتمع: وتهدم أركانه، فبطانة امرأة العزيز من نسوة المدينة، لم تلجأ إلى النصح، ولم تعمل على رأب الصدع وإصلاح الخلل، وإنما مكرن وأشعن أولاً، ثم راودن يوسف -عليه السلام- وكن عوناً لامرأة العزيز عليه، مع أنه قد سبق فى علمهن سوء قصدها وبراءة ساحته.

"وهكذا شاع الخبر وانتشر، وذلك دأب ما يجرى فى القصور والصالونات، عندما لا يوجد تدين عندهم، أن رائحة الفضائح لا تزال عابقة فيها".

٤ ـ **العِبْرَة الرابعة:** فى الآيات الكريمة دليل على القياس والاعتبار، وذلك فى قول الله تعالى على لسان الشاهد من أهل امرأة العزيز: قال تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [٩٤]، ومن هنا قالوا: إن ذلك من باب اعتبار الأمارة، ولذلك احتج بالآية من يرى الحكم من العلماء بالأمارات والعلامات فيما لا تحضره البينات كاللقطة، والسرقة والوديعة، ومعاقد الحيطان، والسقوف وغير ذلك".

---

(٩٤) يوسف : ٢٧.

٥ ـ **العِبْرَة الخامسة:** العصمة والعفاف فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده: فقد أعرض يوسف -عليه السلام- عن الفاحشة خوفاً من الله، وحفظاً لجنب عزيز مصر، الذى أواه وأكرمه، فأبدله الله إحساناً، وصرف عنه السوء والفحشاء، وجعله من عباده المخلصين، عن أبى هريرة -(رضى الله عنه)- عن النبى (قال: "سبعة يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه".

٦ - **العِبْرَة السادسة:** المجاهرة بالمعصية.. الإصرار على الفاحشة مرض قاتل، وهذا ما كان من امرأة العزيز حين دعت أولئك النسوة وأعدت لهن متكئاً وآتتهن السكاكين، وطلبت إليه -عليه السلام- أن يخرج عليهن فلما خرج عليهن أكبرنه لجماله وهيبته، وأثنين على حسنه البالغ، قالت "فذلكن الذى لمتننى فيه" تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله، ولا يلام من يحب مثله، وهذا منطقها، وهو منطق من لا يحجزها دين ولا عقل (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى بالغ فى الامتناع والتحفظ، ولا يزال مستزيداً منهما، ثم قالت تتوعده: "ولئن لم يفعل ما آمره" من إعطائى مرادى منه (ليسجنن وليكونا من الصاغرين) أى من المذلين المهانين مع السراق والأفاك والأباق فى السجن، كما سرق قلبى وابق منى وسفك دمى بالفراق، فلا يهنأ له ثم طعام أو شراب أو نوم، كما منعنى هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلى على السرير أميراً فليكن فى السجن على الحصير حسيراً، هنا لا يسع المرء إلا أن يسجد شكراً لله أن هداه لهذا الدين، وما كان ليهتدى لولا أن هداه الله، هذا الدين: دين العفة، دين الكرامة والاعتدال، والاحتساب والتوكل، والتعلق بما عند الله، فما عند الله خير للأبرار، هذا اليقين الذى يملأ على المؤمن قلبه وجوانحه فلا يشغله عنه عرض دنيوى مهما بلغ حسنه وعظمت هيبته، فماله ولهذه الخرق البالية فكل ما فوق التراب تراب.. إنه يجد من نفسه صدا لوساوس الشيطان، ودفعاً لدخائله، وتثبيتاً للفؤاد، وتحصيناً لجهاز المناعة الربانى الكريم.

وهكذا يسدل الستار على قصة امرأة العزيز، وبطانتها من نسوة المدينة مع نبى الله يوسف -عليه السلام.

الفصل الثالث

المرأة فى السنة النبوية

■ قال رسول الله (ﷺ) (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم) رواه الترمذى وصححه الألبانى.

■ قال (ﷺ) (استوصوا بالنساء خيرا) متفق عليه.

■ قال النبى (ﷺ): (لا يفرك مؤمن مؤمنة - أى لا يبغضها - إن كره منها خلقا رضى منها آخر) رواه مسلم.

■ قال (ﷺ): (إن أعظم الذنوب عند الله: رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها وذهب بمهرها) رواه الحاكم وصححه.

■ قال النبى (ﷺ): (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل) رواه أبو داود وصححه الألبانى.

■ قال النبى (ﷺ): (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك) متفق عليه.

■ قال النبى (ﷺ): (يا عبد الله: ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ " قال: بلى يا رسول الله.قال " فلا تفعل صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا ولزوجك عليك حقا"(رواه البخارى).

■ قال النبى (ﷺ): (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها فى آخر اليوم). رواه البخارى.

■ قال معاوية بن حيدة: قلت: يا رسول الله ! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح - أى لا تقل قبحك الله - ولا تهجر فى البيت) رواه أبو داود.

■ قال النبى (ﷺ): (ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يؤذن فى بيوتكم لمن تكرهون، وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن) رواه الترمذى.

■ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت (كان الحبش يلعبون بحرابهم، فسترنى رسول الله (ﷺ) وأنا انظر) رواه البخارى.

■ - قال النبى (ﷺ) (رحم الله رجلا قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح فى وجهها الماء) (رواه أبو داود وأحمد وصححه الألبانى).

■ - وقال النبى (ﷺ) (إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه، ثم ينشر سرها)(رواه مسلم).

■ وقال النبى (ﷺ) (ملعون من أتى امرأة فى دبرها) (رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى).

■ - وقالت عائشة رضى الله عنها: (ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما ولا امرأة قط) (رواه مسلم).

■ -قال النبى (ﷺ) (إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل فى امرأتك) (متفق عليه).

■ قال النبى (ﷺ): (كل شىء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون أربعة - و ذكر منها - ملاعبة الرجل امرأته) (رواه النسائى وصححه الألبانى).

وصايا الرسول (ﷺ) للمرأة

■ قال النبى (ﷺ): (ألا أخبركم بنسائكن من أهل الجنة ؟ الودود الولود العؤود، التى إذا ظلمت قالت هذه يدى فى يدك، لا أذوق غمضا حتى ترضى) رواه الطبرانى وحسَّنه الألبانى.

■ قال النبى(ﷺ): إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصَّنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلى الجنة من أى الأبواب شئت) رواه ابن حبان وصححه الألبانى.

■ قال النبى(ﷺ): (الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) رواه مسلم.

■ وقال النبى(ﷺ): (لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه) (متفق عليه).

■ قال النبى(ﷺ): (إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه، فلم تأته، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح) (متفق عليه).

■ قال النبى (ﷺ) لامرأة: (أذات زوج أنت ؟ قالت: نعم قال: فانظرى أين أنت منه فإنما هو جنتك ونارك. (رواه أحمد والحاكم وصححه وجود المنذرى.

■ قال النبى(ﷺ): لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه الترمذى وصححه الألبانى .

■ قال النبى (ﷺ): (لا ينظر الله تبارك وتعالى الى امرأة لا تشكر لزوجها، وهى لا تستغنى عنه) رواه النسائى فى الكبرى وصححه الحاكم.

■ قال النبى (ﷺ): ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا، رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصادمان) رواه ابن حبان وحسنه العراقى والنووى.

■ قال النبى (ﷺ): لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل، أى ضيف، يوشك أن يفارقك إلينا) رواه أحمد والترمذى.

■ قيل للنبى (ﷺ): أى النساء خير؟ قال: التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها وماله بما يكره) رواه أحمد والنسائى.

■ قال النبى (ﷺ): (رحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت، وأيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى.

■ قال النبى (ﷺ): (لا تباشر المرأة المرأة.. فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها). رواه البخارى.

■ قال النبى (ﷺ): إذا تصدقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة فلها أجرها بما أنفقت، وللزوج بما اكتسب) متفق عليه.



الفصل الرابع

مكانة المرأة فى الإسلام

لقد أسفر نور الإسلام فافترَّ ثغر الدهر لنساء المجتمع الإنسانى عن جو مشرق وأمل بعيد وأسلوب من الحياة جديد، وإذا كان للمرأة العربية فى عهد جاهليتها بعض الفضائل المكتسبة ومواهبها الموروثة، وحقوقها التى حصلت على بعضها، فإنه عندما جاء الإسلام وأشرقت أنواره ورسخت أصوله وورفت ظلاله، شرع لها من الحقوق ما لم يكن موجوداً من قبل.

ولم تحصل المرأة فى أى عصر على أحسن من هذا التشريع فذلك حكم للحقيقة والتاريخ، ذلك أن الإسلام فرق حجب الفوارق بين النساء كما فرقها بين الرجال فتطامنت الرءوس، وتساوت النفوس، فليس بين الرجل والمرأة إلا الخير تقدمه بطيب نفس أو العمل الصالح تسبق إليه، لكن لا تدل بمكانة أب أو منزلة عم أو جاه خال أو تعتز بحسب، فذلك ما لم يقدمها أنملة ولا يغنى عنها فتيلا.

لقد شرع الله للمؤمنين شرعة الإخاء، حيث يقول جل شأنه ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ فلم يفرق بين المسلمة والمسلمة، أو بين المسلم والمسلم إلا قوى الخلق وحسن الأدب وموفور العقل والعلم والحلم، لهذا يقول ربنا جل وعلا ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ (النور:٢٦)..

ولعل المرء يعجب وهو يرى ويسمع هذا الاهتمام من النبى العربى الذى يرشد إلى البر بالبنات، والعناية بهن، وأمره ببذل الرحمة وإسداء المعونة، تذكر السيدة عائشة رضى الله عنها أن امرأة جاءتها ومعها ابنتان، قالت: فسألتنى، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فحدثته بأمرها، فقال: (من ابتلى من هذه البنات بشىء كن له سترا من النار).

وجاء القرآن ليعلن ويحدد المفاهيم وإن من رمى زوجته فى عرضها فعليه إن لم يكن معه شهود يتسمون بالصدق ويعرف عنهم حسن الخلق فعلى هذا الرجل أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما قال وادّعى، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإن لم يلتزم بذالك فيعاقب بجلده ثمانين جلدة، ولا تقبل له شهادة بعد ذلك، لأنه صار من الفاسقين، وذلك إذا رمى زوجته بالفاحشة واتهمها بالزنى ولم يقم الدليل، فكان الحلف تبريرا لما ادَّعاه.

إن أشد ما يؤلم نفس الرجل الكريم أن يسمع أحداً يعيّره بأمه، لأن ذلك يهز من شخصية الرجل ويضعف من مركزه الاجتماعى، فلقد حدث أن أبا ذر (رضى الله عنه) عيّر بلال بأمه السوداء، وسمع ذلك النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال لأبى ذر: إنك امرؤ فيك جاهلية! أعيّرته بأمه؟! فما كان من أبى ذر إلا أن وضع خده على الأرض وقال لبلال: طأ بقدمك على خد ابن البيضاء.

ذلك لأن رسول الله استن للمسلمين سنة المساواة، ويقول: كل نسب وسبب يوم القيامة مقطوع إلا نسبى وسببى.

ومع كل ذلك فلا مجاملة فى حدود الله، فمن تعد على الحدود يحاسب مهما كان مركزه الاجتماعى ووضعه الأدبى فى المجتمع، من ذلك حديث فاطمة المخزومية وهى امرأة من ذوات الحسب والنسب فى قريش ضعفت نفسها ووهنت فسرقت، فقامت عليها البينة فوجب عليها الحد وهو قطع يدها لقول الله تعالى ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (المائدة:٣٨) ولقد أهم قريش هذا، وبعثوا بمن يكلم النبى (صلى الله عليه وسلم) ولم يجدوا من يجترأ على هذا غير أسامة بن زيد، وهو حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وله منزلة كريمة ولكنه عندما تكلم وشفع للمرأة حتى لا تقطع يدها غضب النبى (صلى الله عليه وسلم) وقال أتشفع فى

حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فى الناس وقال (إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله ،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)!

وهذا عملا بقوله تعالى﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (المائدة:٨).

وهكذا نجد أن رسول الله برغم حبه وعطفه على المرأة فإنه لا يقر الانحراف فى السلوك، هذا مع أن رسول الإسلام نبه وأرشد ووجه، لكن الثواب والعقاب لا بد أن يطبقا حتى لا يكون هناك انحرافات داخل المجتمع، ويكون هناك ارتقاء بالتعاليم الدينية والقيم الأخلاقية والتقاليد البيئية، ليرقى المجتمع ويتقدم فى العطاء والإنتاج.

نظرة تاريخية

شهد العصر الحديث جهودا مكثفة على النطاق المحلى والنطاق العالمى من جانب المرأة ومؤيديها من الرجال للنهوض بها ومساعدتها فى الحصول على حقوقها والقضاء على التمييز الذى يفرق بينها وبين الرجل، وبالتالى على النظرة التقليدية التى وضعت المرأة فى منطقة الظل ووضعت الرجل فى منطقة النور من الحياة، إيمانا منهم بأن تحقيق الرخاء والحياة الأفضل للجميع لا يمكن أن يتم دون المشاركة الفعالة لنصف المجتمع أى للمرأة فى جميع ميادين الحياة.

وإذا كانت المرأة ونحن فى القرن الحادى والعشرين قد حصلت على بعض حقوقها فى المجتمع، إلا أنها مازالت تناضل من أجل الاعتراف بها نصفاً مساوياً للبشرية فى الحقوق والواجبات، فإن النظرة التاريخية لواقع المرأة المصرية عبر العصور تمتد إلى سبعة آلاف سنة قد جعلتها تختلف كليا عن باقى نساء العالم، شأنها فى ذلك شأن أمها مصر أم الحضارة وصانعة التاريخ.

فتاريخ المرأة المصرية يقاس بآلاف السنين بينما تاريخ غيرها يقاس فقط بالمئات من أعظم الدول، وتؤكد آثارنا الفرعونية أن المرأة آنذاك كانت تشارك الرجل فى كافة المسئوليات، وتقف معه على قدم المساواة فى الدين والدنيا فتقلدت منصب الكاهنة واعتلت العرش وقادت الجيوش مثل حتشبسوت، كما

شاركت فى جميع الأعمال السياسية والاقتصادية، وشهد لها المؤرخ الكبير هيرودت (عجبا لهذه البلاد فإن النساء فيها يذهبن إلى الأسواق ويعملن بالتجارة ويعقدن العقود).

وباضمحلال الحضارة الفرعونية وحلول عهود الاحتلال البطلمى ساءت أحوال المرأة المصرية، وكُبلت حركتها وحُد من مشاركتها فى الحياة على يد المحتل الذى كان ينظر للمرأة على أنها مخلوق أدنى من الرجل خلق للترفيه عنه فقط، فحرم على المرأة التدخل فى الحياة العامة وأصدر القوانين التى تحرم عليها حق التصرف فى أموالها وجعل حق التصرف فى كل ما يتعلق بشئون الأسرة وشئونها هى أيضا من حق الرجل وحده.

نظرة الإسلام للمرأة

ظلت حال المرأة على هذا النحو قرونا عديدة إلى أن جاء الإسلام فأنصف المرأة وسوَّى بينها وبين الرجل بل خاطبها بمثل ما خاطب به الرجل بعد ما حرم وأد البنات بقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ (النساء:١). وكذلك ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النحل: ٩٧).

كما أعاد الإسلام للمرأة استقلالها الاقتصادى الذى كانت تتمتع به فى مصر الفرعونية، وأقر الإسلام حق المرأة فى الميراث ﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ (النساء:٧).

واحتفظت الشريعة الإسلامية للمرأة باستقلال شخصيتها واسمها وأهليتها وعدم ذوبانها فى شخصية الرجل بعد الزواج كما يحدث للمرأة فى الدول العربية حتى الآن.

وقد سوَّى الله بين الرجل والمرأة ليس فقط فى الأمور الدنيوية بل أيضا فى الأمور السماوية فاصطفى النساء كما اصطفى الرجال ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا**

مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران:٤٢)، وأوحى سبحانه للمرأة كما أوحى للرجال ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾(القصص:٧).

وتأتى أروع صورة للمرأة فى القرآن الكريم فى صورة بلقيس ملكة سبأ المتوجة من قبل شعبها وجاء وصفها بقوله تعالى ﴿ **وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ (النمل:٢٣).

ويشهد لها القرآن بحكم ديمقراطى قد يحسدها عليه كثير من الملوك والحكام، وقد تجلى ذلك عندما جمعت شعبها وطلبت منه مشورته فى ردها على رسالة سليمان عليه السلام قائلة﴿ **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴾ (النمل:٣٢).

وشهد فجر الإسلام علو شأن المرأة ومشاركتها للرجل حتى فى مجال الطب والفقه والشعر والأدب، وتأسيسا على ذلك فقد أصبح لها أهلية مستقلة الآن فى حقها من الميراث الشرعى وهو فرض بنص القرآن، ترث من أبيها وأخيها وزوجها يقول تعالى ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ** ﴾.(النساء:١١). إلى آخر الآية التى يقول فيها ربنا ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ . كما أن من حقها أن تتملك أى شىء، ولها ذمة فى البيع والشراء، ولا يحل للرجل أن يتزوج بها إلا بمهر يدفعه لها وليس لها أن تتجهز به.

فالإسلام هو الذى منح هذه الأهلية للمرأة ثقة منه فيها بحيث يحفظ كرامتها، ويرفع قدرها ويجب أن يتم كل ذلك فى إطار الرشد والتعقل، ونجد أن الإمام الماوردى ذكر فى كتابه (الأحكام السلطانية) أن ابن جرير الطبرى جوز أن تقوم المرأة بعمل القضاء فى جميع الأحكام.

كما يقول أبو حنيفة يجوز للمرأة أن تتولى القضاء فيما تصح فيه شهادتها، ولا يجوز لها أن تقضى فيما لا تصح فيه شهادتها.

وكذاك منح الإسلام المرأة حق أن تتولى الإفتاء إذا ما أعدتها دراستها لذلك.

ومثال ذلك صلح الحديبية عندما وقع الرسول (صلى الله عليه وسلم) على المعاهدة التى عرضتها قريش على يد سفيرها سهيل بن عمرو، وكان ظاهر المعاهدة قاسيا جدا على المسلمين، فظهر فريق المعارضة يتزعمهم عمر بن الخطاب، وتباطأ هذا الفريق فى طاعة أمر رسول الله لهم بالحلق ليتحللوا من العمرة، فغضب النبى (صلى الله عليه وسلم) ودخل على زوجته أم سلمة وهو فى حالة غضب مما بدر من المسلمين، لكنها هدَّأت من روعه وأشارت إليه أن يحلق أولا، فإذا ما رآه المسلمون تبعوه، وتم ذلك فعلا، وكان من حسن رأى المرأة وفضل مشورتها حزم هذا الموقف.

كانت المرأة فى الجاهلية (قبل الإسلام) ليس لها حقوق وكان الجميع ينظرون إليها نظرة احتقار وذل وعار.. لم يكن للمرأة حق الميراث ولا حق التصرف بأموالها ولا حق التملك والرأى، وكانت بعض قبائل العرب تشعر بالغم إذا بُشِّروا بالأنثى وبعضهم كان يؤدها عند ولادتها زعما أنها تجلب الفقر والذل والعار لحاجتهم للرجال أكثر من النساء لكثرة الحروب فى الجاهلية.

عندما جاء الإسلام رفع مكانة المرأة ورفع شأنها وقضى على جميع صور الإهانة التى كانت تتعرض لها المرأة فى جميع عصور التاريخ، كما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق والإنسانية والكرامة وهذه من بعض آثار المساواة:

١- المساواة فى أصل الخلقة فالرجل والمرأة خُلقا من نفس واحدة قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ (النساء: ١).

٢- المساواة فى حق الحياة: ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق الحياة وجعل التعدى على هذا الحق من أكبر الذنوب. كما استنكر الإسلام ما كانت تفعله بعض القبائل فى الجاهلية من وأد للبنات وعدَّها جريمة شنيعة كما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الأحكام الشرعية كالقصاص والدية وجعل دم المرأة مساويا لدم الرجل.

٣ـ المســاواة فـى التكليـف والجــزاء: لا تخـتلف المرأة عـن الرجل فـى التكاليـف الشرعية والجزاء الأخروى.

٤ ـ المساواة فى أهلية التصرفات المالية: إذا بلغ الإنسان عاقلا رشيدا كانت له شخصيته القانونية الكاملة فى أن يتصرف فيما يملكه كما يشاء بالبيع والهبة والوصية والإجارة وغير ذلك.

٥ـ المساواة فى حرية التفكير والرأى: ما دامت المرأة كالرجل فى مسئولية التكليف والجزاء فإنها تتساوى معه فى حق التفكير وحرية الرأى ووجوب النظر والتدبر لتصل إلى الرأى القويم".



الفصل الخامس

دور المرأة فى المجتمع الإسلامى الأول

كان للصحابيات دورهن العظيم فى جميع مراحل الدعوة للإسلام، على النحو التالى:

المرحلة السرِّية:

بدأ الرسول دعوته سراً، وكان (يجتمع بالمسلمين الأوائل، ويرشدهم إلى الدين متخفياً لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، كان سعيد بن زيد يقول: استخفينا بالإسلام سنة، ما نصلى إلا فى بيت مغلق، أو فى شعب خال ينظر بعضنا لبعض.

وكان رسول الله وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا فى الشعاب فصلوا فرادى ومثنى، قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدث به.

وكان دور المرأة فى هذه المرحلة السرية واضحاً: فمعظم الشباب المتزوجين فى هذا المجتمع أسلمت معهم زوجاتهم، وعشن المرحلة السرية دون أن يدرى بهن أحد، فحافظن على السر وكتمنه دون أن يسمع أحد شيئاً عن إفشائهن إياه.

وترامت الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين، الذين يتكلمون فى الألوهية وحقوقها كأمية بن أبى الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة.. وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته.

ومرت ثلاث أو أربع سنوات ولم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين؛ ذلك أن رسول الله لم يكن قد كلف بالجهر بالدعوة، وهو عدد قليل إذا ما قورن بسكان مكة الذين كانوا عدة آلاف.

ولم يتوقف دور المرأة عند كتمان السر، بل لقد بدأت منذ هذا العهد المبكر بالدعوة إلى الدين؛ فأم شريك، مثلاً، أسلمت، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن وترغبهن فى الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا لها: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، ولكنك سنردك إليهم.

لقد فهمت المرأة المسلمة الدين فى هذا الوقت فهماً رائقاً ومسئولاً، فهمت كما أنها مسئولة مسئولية خاصة عن نفسها فيما يختص بدينها وعقيدتها، فإنها مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الدين، ومن ثمَّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو أكبر المسئوليات فى نظر الإسلام، بل جوهر كل المسئوليات الأخرى، فهمت ذلك فلم تلق حظها من تلك المسئولية اعتماداً على ظن أو وهم أنه شأن خاص بالرجال، ولم تتعلل بأن الرجل أقدر منها عليه، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، وفى الفقرات التالية الدليل الآكد على ما أقول.

دور المرأة فى مرحلة الجهر بالدعوة:

أمر الله نبيه محمداً بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادى الناس بأمره، ويدعو إليه، فقال: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾(الحجر:٩٤)، (ولما أعلن رسول الله بالدعوة نابذته قريش، ورموه بالبهتان، وجاهروا فى عداوته، وأظهروا له البغضاء، وآذوه وآذوا من اتبعه بكل ما أمكنهم من الأذى، ولكنه ظل قائماً فى طاعة الله أتم قيام يدعو إلى الله تعالى الصغير والكبير، والحر والعبد، والرجال والنساء.

ومنذ اليوم الأول للجهر بالدعوة يعلن تساوى الرجل والمرأة فى المسئولية والجزاء، وهى مسئولية تلقى على المرأة، لتؤكد المساواة فى القيمة الإنسانية بينهما، وبين أخيها الرجل، كما تؤكد نظرة الإسلام لها كمستخلف فى الأرض، جدير بحمل الأمانة، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله حين أنزل عليه ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾: "يا معشر قريش: اشتروا أنفسكم من

الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يابنى عبد المطلب: لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب: لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله: لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت رسول الله: سلينى بما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً".

وفى تخصيصه فاطمة من بين بناته مع أنها أصغرهن وتخصيصه صفية من بين عماته حكمة لا تخفى وهى ذكر الصغيرات ليشمل الأمر الكبيرات بطريق الأولى، ولقد خص عليه السلام أقرب الناس إليه رجالا ونساء، فمسئولية غيرهم تتقرر بطريق الأولى كذلك.

وفى رواية ذكرها مسلم، عن أبى هريرة: قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله قريشاً فعم وخص.. وعلى الرغم من هذا التعميم والتخصيص الذى لم تغب فيه النساء، بل إنه على الرغم من شمول النداء صفية وفاطمة فيمن خصهم، فلقد أجمعت المصادر التاريخية على ذكر جمع العشيرة بالقول: "جمع رسول الله عشيرته فكانوا أربعين رجلاً، يزيدون رجلا أو ينقصونه" !!

والذى يعنينا هو أن نسأل: أين النساء إذن فى هذه المصادر، هل يدخلن تحت هذا التعميم أم يتم تجاهلهن على هذا النحو الموهم بان أمر العقيدة لم يكن مما يعنيهن، ويدخل فى اهتمامهن ؛ وهنا نكرر أيضاً القول إن التاريخ للمرأة لم يكن هو صورة الواقع الذى كان.

لقد كانت الصيحة النبوية فى النساء والرجال عند أول إنذار جهرى بالدعوة، والتى جاءت بها أصح المصادر هى غاية البلاغ عن إنسانية الرسالة وشمولها الرجل والمرأة على قدم المساواة، وعن تقرير المسئولية الفردية لكلّ عن موقفه أمام الله عز وجل إزاء هذه العقيدة.

والنداء النبوى فى الرجال، والنساء منذ البدايات الأولى للدعوة، ذلك النداء الذى كان تنفيذا للأمر الإلهى بإنذار ذوى القربى، هو أكبر دليل على ما عمد إليه الإسلام من إنهاء واحدة من أعظم الأوضاع الفاسدة فى حياة الأفراد والجماعات، وهى مسألة التبعية عامة عند الرجل وعند المرأة، وهى مسألة عاشتها المرأة قروناً قبل الإسلام، وما يدعو للعجب أن تستمر معايشتها لها بعده.

لقد كان هذا النداء يرسخ، ويؤكد المبدأ الأصل الذى ينبغى أن تقوم عليه

دعائم الحياة الاجتماعية، والعلائق الإيمانية بين الرجال والنساء فى الإسلام، ذلك المبدأ هو أن الموالاة بين المؤمنين رجالاً، ونساء ترتبط بالأعمال، لا بالأشخاص، والذوات، ولا بنوع المؤمنين: رجالاً كانوا، أو نساءً.

الاضطهاد فى سبيل العقيدة:

قال ابن إسحاق: ثم إنهم هبوا على من أسلم واتبع رسول الله من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم.

وكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (من أهل الإسلام، نفث الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه وكان التنفيث على أشده فى أشخاص الموالى لأنه لم تكن لهم منعة، فكان العذاب أقسى وأفظع، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله (من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال: نعم.

والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به، حتى ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعُزَّى إلهك من دون الله، فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر به، فيقولون له أهذا الجعل إلهك من دون الله ؛ فيقول نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده، وفى هذا أنزل الله تعالى: ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾، (النحل :١٠٦).

لقد لاقت المرأة مع الرجل تنكيلاً تقشعر من هوله الأبدان فلقد "كانوا يسوون بين الرجال والنساء فى التعذيب"، وتفاعلت المرأة مع الرجل بنفس المسئولية وبنفس قدر المواجهة:

(كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول: صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة. فأما أمه فقتلوها، وهى

تأبى إلا الإسلام. روى الإمام أحمد أن مجاهداً قال: أول شهيد كان فى الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بحربة فى قلبها.

(إن القدر الإلهى الذى شاء لأول شهيد فى الإسلام أن يكون امرأة ليعد واحداً من أبلغ الأدلة على ما كان يراد للمرأة المسلمة من قيام مسئول، وجاد فى سبيل الدين، وما يدعو إليه ؛ كانت سمية سابع سبعة فى الإسلام وكانت من السابقين وممن أظهر الإسلام بمكة أول الإسلام؛ عن ابن مسعود قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد.

فأما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم فى الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوهم ما سألوا، فجاء إلى كل واحد قومه بانطباع الأدم فيها الماء، فألقوهم فيها، فلما كان العشى جاء أبو جهل، فجعل يشم سمية ويرفث، ثم طعنها فى قلبها فقتلها فهى أول شهيد فى الإسلام، وروى هذا الحديث عن منصور عن مجاهد.

وكانت النهدية وابنتها امرأتان من بنى عبد الدار، فمر بهما أبو بكر وقد بعثتها سيدتها بطحين لها: وهى تقول لها: والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر: حل يا أم فلان، فقالت: حل، أنت أفسدتها فأعتقها، قال الصديق: فبكم هما؟ قالت المرأة العبدرية: بكذا، وكذا، فقال الصديق (رضى الله عنه): قد أخذتهما، وهما حرتان، أرجعا لها طحينها، قالت النهديتان: أو نفرغ منه يا أبا بكر؟ ؛ قال: ذلك لكما إن شئتما.

وأعتق - رضى الله عنه - أيضاً جارية بنى المؤمل، حى من بنى كعب، وكانت مسلمة وعمر بن الخطاب يعذبها وهو يومئذ على الشرك، حتى إذا مل قال: إنى اعتذر إليه، إنى لم أتركك إلا ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك.

وأعتق أبو بكر أيضاً أم عبيس، وكانت فتاة لبنى تيم بن مرة، فأسلمت، وكانت ممن يعذب فى الله تعالى، فاشتراها أبو بكر وأعتقها، وزنيرة، قال هشام بن عروة: وهى أحد السبعة الذين كانوا يعذبون فى الله، فاشتراهم أبو بكر، وكانت رومية لبنى عبد الدار فلما أسلمت عميت، فقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزّى، فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان. فرد الله بصرها. وأعتق أيضاً حمامة أم بلال.

(ولم يقتصر التعذيب على المستضعفين من الموالى والأرقاء، فقد تفتن كل بطن من بطون قريش فى التنكيل بمن اسلم من أبنائه، فكانوا يحبسونهم فى الظلام ويقيدونهم بالحبال ويحرمونهم الطعام والشراب، ويذيقونهم من ألوان الأذى. قال سعيد بن زيد: والله لقد رأيتنى وإن عمر لموثقى وأخته على الإسلام قبل أن يسلم.

(ولم يكن إيذاء المشركين للمؤمنات فى مكة وحدها، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة، فقد روى سعد أن أم شريك غزية بنت جابر أسلمت هى وزوجها، ولما هاجر زوجها مع أبى هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبى العكر، فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها عذاباً شديداً، فارتحلوا بها من ديارهم، وحملوها على شر ركابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزاً وعسلاً، ومنعوا عنها الماء، وتركوها فى الشمس ثلاثة أيام، حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها. وفى اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بإصبعها إلى السماء بالتوحيد، ولا تعى ما يقولون من شدة الإغماء والإعياء.

وكان الإسلام قد وجد طريقه إلى المدينة قبل الهجرة، وكانت حواء بنت يزيد بن سنان الأنصارية مسلمة، أسلمت قديما ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة، وكان زوجها قيس بن الخطيم يصدها عن الإسلام، ويعبث بها وهى ساجدة فيقلبها على رأسها، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمر الأنصار، فأخبر بإسلامها، وبما تلقى من قيس، فلما كان الموسم أتاه النبى (صلى الله عليه وسلم) فدعاه إلى الإسلام فقال: "يا أبا يزيد إن صاحبتك حواء قد بلغنى أنك تسىء صحبتها منذ فارقت دينك، فاتق الله واحفظنى فيها ولا تعرض لها" وفى رواية "إن امرأتك قد أسلمت، وإنك تؤذيها، فأحب أنك لا تتعرض لها".

وهكذا لم تكن القضية قضية قريش وحدها، وإنما كانت قضية كل قبيلة فى الجزيرة العربية وصلتها الدعوة، وقصر الحديث على قريش أو تركيزه، قبولاً للدعوة، أو رفضاً لها، يعطى الدارس إيحاء خاطئاً بأنها معركة محلية، أو شخصية بين قريش ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، والملابسات وحدها هى التى جعلت قريشاً أشد القبائل اشتباكاً به، بحكم أنهم قوم الرسول المباشرون، وهكذا وقفت الجاهليات جميعاً من هذه القضية موقفاً واحداً، هو الرفض لـ "لا

إله إلا الله" بمعناها الشامل، وذلك لما يترتب عليها فى التاريخ كله: أن يكون الناس أحراراً فى عالم الواقع لا عبيداً بعضهم لبعض، كما يترتب عليها أن يمارسوا العدل فى ظل منهج الله لا أن يمارسوا المظالم فى ظل المناهج البشرية.

ولقد يؤدى بنا التفكير الذى استمرأ تهميش دور المرأة، واعتباره فرعاً لا أصلاً أن نتساءل: ألم يكن يسع النساء، لأنهن نساء أن يدارين ولا يظهرن إسلامهن، خلوصاً من هذا العذاب، ولم يكن هذا أمراً مرفوضاً فى الدين، لا مع الرجال ولا مع النساء.

وإن إجابة ذلك أن النساء - حسبما دلت مطالعتنا فى هذا العهد الكريم - لم يعرضن لهذا القول، بل لم يعرض له بقية المسلمين من الرجال، وكانت المسئوليات تتداول بين جميع المكلفين من الرجال والنساء، متى قدر الواحد منهم على هذه المسئولية، ولو جاز أن تعفى المرأة من تبعة موقف جماعى، لكان هذا الموقف هو الاضطهاد والتعذيب، ويكفى أن نتذكر بشاعة القتلة التى قُتلت بها سمية وآل ياسر يعذبون، فلم يقدم الرخصة بالمداراة لسمية لأنها امرأة، على حين أنه لما ضعف احتمال عمار تحت سياط التعذيب، وهو الفتى الشاب، وفاه بكلمات أجبره الطغاة على التفوه بها، قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن عادوا فعد".

فالمسألة إذن ليست نساء أو رجالاً، إنما هى مسألة قدرة واستطاعة، ولقد تقدر المرأة فى مواقف لا يقدر عليها كثير من الرجال.. وإن الواحدة من المعذبات لم تكن تعطى السادة والطغاة شيئاً من لسانها فضلاً عن قلبها، بل إنه لم يكن يخرج من لسانها إلا ما يسوء الكافرين، كما كانت تفعل جارية بنى المؤمل وزنيرة.

وإن هذه الصور لاحتمال المرأة المسلمة فى سبيل عقيدتها هى أقوى الأدلة على أن المسئولية الإيمانية عندها كانت جزءاً من الاعتقاد نفسه.

صورة المرأة فى القبائل الأخرى:

ولم تغب عن المصادر صورة المرأة فى القبائل الأخرى، ذلك أنه لما وجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الدعوة قد وصلت إلى طريق مسدود مع أهل مكة لم ييأس (صلى الله عليه وسلم) وقرر أن يستمر فى عرض دعوته على قبائل العرب القادمة إلى مكة فى مواسم الحج والعمرة والتجارة، بل والخروج إلى منازل القبائل حول مكة ليخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين ما بعثه الله به.

وكان للمرأة المسلمة حضورها فى هذه القبائل فى هذه المرحلة المبكرة - كما فى كل المراحل - فلقد ذكر ابن حجر.. عن عبد الرحمن العامرى، عن أشياخ من قومه: قالوا أتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونحن بعكاظ فدعانا إلى نصرته ومنعته، فأجبناه حتى إذا جاء بيحرة بن فهراس القشيرى، فغمز شاكلة ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقمصت به، فألقته، وعندنا يومئذ ضباعة بنت عامر، وكانت من النسوة اللاتى أسلمن مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة، فجاءت زائرة بنى عمها، فقالت: يا آل عامر ولا عامر لى، يصنع هذا برسول الله بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم؟ فقام ثلاثة من بنى عمها إلى بيحرة فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره، ثم علا وجهه لطما، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "اللهم بارك على هؤلاء"، فأسلموا وقتلوا شهداء.

لقد كان موقفها (رضى الله عنها) واستنفارها بنى عمها لنصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) موقفاً واضحاً فى الدلالة على الإحساس بالمسئولية، بل والشعور بالقوة فى ذلك؛ تلك القوة التى يبثها الدين فى قلوب أتباعه، فلقد قامت (رضى الله عنها) بهذا الدور بينما كان الإسلام لما نزل غريباً، قليل الأتباع، معدوم النصير، ولم تؤثر هذه الحال فى قوة استنفارها لبنى عمها كى تخلص الرسول (صلى الله عليه وسلم) مما كان فيه.

كيف استطاعت المرأة كل ذلك؟

لقد قدمت معظم الكتابات فى هذا الشأن معطياتها متخطية الإجابة عن السؤال المهم: كيف حدث هذا؟! إننا نعجب بالبطولة ونمتدح التضحية والفداء ونزدهى بالشجاعة، ولكننا قلما نفكر فى السبب الكامن وراء هذه البطولة، وهو الحقيقة التاريخية الأساسية التى ينبغى للباحث أن يحاول استجلاءها واستخراجها للناس، كيف غيَّر الإسلام ملامح الشخصية العربية ذاتها، بينما كانت لا تزال فى بيئتها ذاتها التى شكلتها من قبل؟.. لقد جاء الإسلام وما تغير فى هذا البيئة شىء، لا طبيعتها المادية، ولا أحوالها الاقتصادية.. وإنما تغيرت النفوس.

وكان تغيراً هائلاً هَزَّ قريشاً وهى تضطهد المؤمنين وتعذبهم بأقصى ما فى طوقها من صنوف التعذيب.. والمسألة فى نفوس أولئك الأفراد غاية فى البساطة: لقد خلعوا الأرباب التى كانوا يتعبدونها فى الجاهلية، فما عاد لها

عليهم سلطان. وإذن فإن كل ما تغير هو العقيدة الجديدة التى عمرت هذه القلوب فغيرت كل شىء فيها.

النساء فى فترة دار الأرقم:

دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو وأصحابه دار الأرقم بن أبى الأرقم، وبقى فيها مختفياً مع جماعة إلى أن أذن الله لهم بالخروج، وكان (صلى الله عليه وسلم) يلتقى بالرجال والنساء فى هذه الدار.

وكان أمر هذه الدار من الأسرار العظيمة لدى جماعة المؤمنين رجالاً ونساء: أؤتمنوا عليه، قام إليه المشركون فضربوه ضرباً مُبرحاً وحمل إلى بيته، فلما أفاق، قال: ما فعل رسول الله؟ فقالت أمه: والله ما لى علم بصاحبك. فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك ؛ قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفا، قد أشْفَى على الموت.

فدنت أم جميل، وقالت: إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال: فما فعل رسول الله؛ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال أين هو؛ قالت: فى دار الأرقم بن أبى الأرقم. قال: فإن لله على ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو لآتى رسول الله.

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فأكب عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأكب عليه المسلمون.

وفى ظل هذه الأحداث، وفى واحدة من أدق أسرار الجماعة فى هذه المرحلة، كان الحضور النسائى الحميم، والدقيق فلقد علمت أم جميل بنت الخطاب، بمكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى دار الأرقم ولم يكن قد مرَّ زمن طويل على استخفائه (صلى الله عليه وسلم) بها.

ولعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يلتقى بأصحابه فى أكثر من مكان، وهو أمر ندلل عليه بعدم معرفة أبى بكر (رضى الله عنه) بمكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعدما أفاق، ولو كان (رضى الله عنه) عالما لما بقى هناك

معنى لإلحاحه أن يطمئن على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويعرف مكانه، ونشدانه ذلك، فإرساله أمه إلى أم جميل بنت الخطاب.

كانت أم جميل تقدر المسئولية تقديراً واعياً؛ فالمتأمل فى رواية أم جميل يجد الحذر البالغ والحرص على حماية سر دار الأرقم حفاظاً على الجماعة المستضعفة وقائدها: أنكرت فاطمة بنت الخطاب معرفتها بأبى بكر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ومكان وجوده، لكن تمام إحساسها بالمسئولية لم يجعلها تكتفى بالإنكار، بل حاولت أن تجد منفذاً تعين به أبا بكر، فعرضت على أمه أن تصحبها إليه، ولما ضاقت بما وجدت عليه أبا بكر من ضر وأذى سارته بالتعبير عن هذا الضيق، ولم تكن لتخرج السر حتى تطمئن تماماً أنه ليس عليها من أمه بأس، بل ليس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والجماعة المؤمنة بأس.. ولا يغيب عنا موقف أم الخير بنت صخر، أم أبى بكر، وقد أسلمت فى غضون هذه الحادثة، دعاها رسول الله فأسلمت، فكانت ممن أسلم قديماً.

وإن هذا الحضور المسئول يدعوناً إلى التأمل والعجب مما حدث بعد فى تاريخ المسلمين من تغييب، وربما إبعاد للمرأة عن الحضور الواعى فيما يخص شئون الجماعة المسلمة.

ونعود إلى دار الأرقم، إننا لا نجد فى كتب الأخبار والتواريخ والسير تاريخاً مضبوطاً للوقت الذى استخفى فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون فى دار الأرقم، فالروايات فى ذلك مضطربة، ولكن المرجح على ما يبدو من النظر فيها، ومقارنتها بالأحداث الأخرى الشهيرة، أنها كانت فى السنة الرابعة حيث كان (صلى الله عليه وسلم) قد جهر بالدعوة، وكانت الحملة المسعورة على المسلمين قد بدأت، فى نفس الوقت الذى كان ينبغى للرسول أن يواصل إبلاغ أصحابه بما ينزل عليه من الوحى.

والأرجح كذلك أن استخفاءه فى هذه الدار كان لفترات قصيرة خلال اليوم، كى يتسنى له أن يلتقى بالداخلين فى الإسلام، وأن يبلغ المؤمنين ما ينزل من الوحى، وليلتقى بأكبر عدد منهم.

والأرجح من خلال البحث ودراسة الروايات المختلفة أن مدة الاستخفاء كانت قرابة العامين وهى مدة ليست باليسيرة ليحتفظ فيها المؤمنون من الرجال والنساء بسرية المكان الذى تلقى فيه الجماعة المسلمة، ولقد كان خروج الرسول والصحابة من الدار بأمر نبوى ولم يكن عن كشف لسرها، أو اكتشاف له.

وعلى الرغم من استنتاجاتنا التى مرت فإننا نشعر بأسف - ولا شك - أن تفاصيل الاستخفاء لم تصل إلينا على نحو مرض، ولقد كانت معرفة تلك التفاصيل قمينة بإيضاح حركة المرأة ودورها فى هذه الفترة، حيث كانت جهرية الدعوة، وسرية دار الأرقم، وبداية مرحلة التعذيب والاضطهاد فى آن واحد، وأيضاً إيضاح نوع التربية التى كانت تتلقاها المرأة المسلمة مع أخيها المسلم لحمل أمانة هذه الدعوة، ومن أسف أن شيئاً من هذا لم تأتنا به المصادر، وهو أمر نسجله.

لكننا على كل حال نستطيع الاستدلال بالنتيجة على المقدمة فى هذا الصدد، ذلك أن الجماعة الصغيرة التى خرجت من مرحلة التربية فى دار الأرقم، قد خرجت وكأنما قد هُيئت وأعدت إعداداً لما وقع عليها بعد من بلاء، وطنوا أنفسهم على الصبر وتركوا الجزع وتوثقت الصلة بينهم وبين خالقهم، فتجاوزوا الروابط الأخرى التى تربطهم بالأهل والأولاد والقوم، بل تجاوزوا روابط النفس وأهواءها، فتكون لديهم الوعى الأصيل الذى مكنهم من احتمال الاضطهاد والتضحية والمعاناة وهو أمر لا نرجعه إلا إلى نوع التربية التى تمت فى دار الأرقم.

لقد كانت الفترة التى قضاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى هذه الدار فترة مهمة فى الدعوة الإسلامية بمكة، ولقد كانت كذلك مرحلة واضحة المعالم فى تاريخ الجماعة المسلمة، حتى إن الكثيرين من المسلمين يؤرخون كثيراً من أحداث الإسلام بتلك الأيام التى كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

ولقد ذكرت المصادر فيمن أرخ إسلامهن يقبل دخول دار الأرقم: رملة بنت أبى عوف السهمية، وأسماء بنت عميس: أسلمتا قبل دخول دار الأرقم. وقال ابن سعد: أسلمت فاطمة بنت الخطاب هى وزوجها.. قبل دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دار الأرقم.

الخلاصة:

كانت المسلمة الأولى نقطة تفوق للمرأة فى ظل الإسلام، لم تعزل عن حادثة وإن دقت وعظم خطرها، ولا أبعدت عن مسئولية، وإن عظمت تبعاتها، وتلك فى الحق بداية الطريق الجديد الذى كان يراد من المرأة المسلمة أن تسير فيه فى ظل الإسلام.

على أن المصادر التاريخية لم تكن معنية العناية الكافية بتأريخ كيفية اعتناق المرأة للدين، وإذا كانت قد قدمت لنا كيفية اعتناق السيدة خديجة (رضى الله عنها) - وهو تقديم متناثر عبر مفازات المصادر، وغير ملتحم البنية - فإننا نرجح أن هذا التقديم لم يكن إلا اقتران التأريخ له بالتأريخ للخطوات الأولى للحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

والشىء نفسُه حدث عند التأريخ لكيفية اعتناق أم سليم للإسلام بالمدينة، فلقد جاء إما فى معرض الحديث عن إسلام أبى طلحة وإما عند الحديث عن المهر، وظهرت قلة العناية أيضاً بتأريخ دور المرأة فى ذاته عند الصدع بالدعوة، حيث الإهمال الواضح لتقرير دورها، كما تبين لنا خلال الدراسة.

على أن الروايات القليلة والمتناثرة عبر المصادر، والتى لم يكن المؤرخ يعتمد عليها تعبيراً عن موقف المرأة ودورها، وإنما كان يأتى ذكر المرأة فيها عرضا فى ثنايا القضايا التاريخية الأخرى، هذه الروايات رغم ذلك كانت معينة للبحث على إيضاح وتصور دور المرأة.

وهذه الصورة التى قدمتها المصادر، رغم أنها ليست الصورة الكاملة، هى صورة على درجة رفيعة من مستوى التضحية والفداء فى سبيل العقيدة، كانت مجبرة للمؤرخ على إظهارها وهو ما يدعونا إلى القول إن اعتبار دور المرأة واحترامه إنما يأتى من عند نفسها أولاً، على أنه لا يمكنها ذلك إلا بأن تحسن الفهم للمنهج الربانى وتتمثل به، وتتمسك بما أراده لها ربها من عزة وما رفعها إليه من مكان معتبر ومسئول.

وأخيراً فإنه من الأهمية بمكان دراسة البيئة الثقافية والاجتماعية لمؤرخى المصادر الأولى، تلك البيئة التى نرجح أنها قد حكمت شكل تاريخهم لدور المرأة، وهذه قضية بحثية تنتظر من يتناولها فى مدى المصادر التاريخية كلها.

الهجرة إلى المدينة

لما بايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأنصار بيعة العقبة الثانية قال للمسلمين: "إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها"، فخرجوا أرسالا، وكانت الهجرة إلى المدينة كهجرة الحبشة فراراً بالدين، لكنها أيضاً، وهذا هو الجديد فى هجرة المدينة كانت تحولاً وتأسيساً لوطن يحتمى به هذا الدين، فلقد كان الإسلام طوال ثلاثة عشر عاماً ديناً بلا وطن وشعباً بلا دولة.

وإن الدولة لا يمكن لها أن تقوم على أساس من مجتمع يجب أن يستقر على صورة من النظام الاجتماعى الدائم، الذى تمتزج خصائصه المادية والمعنوية، فتصبح عنصراً واحداً تقوم عليه شخصية المجتمع الموحد فى عقيدته، وتعبداته، وأنظمته السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسلوكية، والتربوية المتلقاة من وحى الرسالة كتاباً منزلاً، وحكمة ملهمة، وقدوة عملية.

لذلك فقد قام نظام المواطنة وحقوقها السياسية على أساس الهجرة فالولاء للدولة الإسلامية الجديدة والتمتع بحقوق المواطنة فيها أساسه الهجرة إليها والاهتداء بما قام به الرسول الكريم فى الهجرة من موطن الشرك والضلالة القبلية إلى وطن الهدى ونصرة الدين وكرامة الإنسان، وكانت هذه الأهداف، وتحققها بالهجرة هو ما جعل حدث الهجرة إلى المدينة أخطر حركة سياسية لم يحمل محدثوها لها سلاحاً، ولم يعدوا لها عدة إلا الإيمان، والسعى لنصرة عقيدتهم.

حجم مشاركة المرأة فى الهجرة:

وكان أبو سلمة أول من قدم المدينة من المهاجرين، ثم عامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، ثم عبد الله بن جحش، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش.

ثم قدم المهاجرون أرسالا، وكان بنو مظعون، من بنى جمح، وبنو جحش بن رئاب، حلفاء بنى أمية، وبنو البكير، من بنى سعد بن ليث، أهل إسلام، قد هاجروا جميعاً إلى المدينة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هجرة حتى غلقت أبوابهم، ليس فيها ساكن.

ومن نساء بنى جحش المهاجرات زينب بنت جحش وأم حبيب بنت جحش، وجدامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وآمنة بنت رقيش، اسلمن قديماً وهاجرن إلى المدينة مع أهل بيوتهن، وأم حبيب بنت ثمامة، وحمنة بنت جحش.

والمتتبع لتسمية ابن سعد لنساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم يجد أغلبهن من المهاجرات، ولقد ذكر أيضاً ما يقرب من الستين مهاجرة من غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، هذا سوى المهاجرات من بناته (صلى الله عليه وسلم)، وعماته، وبنات عمومته وأزواجه.

ومن الصحابيات المهاجرات نذكر على سبيل المثال هنا: آمنة بنت الأرقم،

وأروى بنت عبد المطلب، وأروى بنت كريز والدة عثمان بن عفان وأم كلثوم بنت عقبة، وبسرة بنت صفوان بن نوفل وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وخالدة بنت الأسود الزهرية، والشفاء بنت عبد الله العدوية، وعاتكة بنت زيد بن عمرو العدوية، وفاختة بنت غزوان، أخت عتبة، وفاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة العبشمية، وقيل بنت مخزمة التميمية، وأم حكيم بنت وداع الخزاعية، وطفية بنت وهب، وقيل ظبية، أم موسى الأشعرى، وأم حبيب بنت بناته الأسدية، وأم قيس بنت محصن الأسدية.

معاناة المهاجرات إلى المدينة:

هذا، ولقد كانت هجرة الصحابيات عملاً بطولياً اتسم بالمغامرة والإقدام والجرأة والمخاطرة واقتحام الصعاب والاستعداد للتضحية بأثمن الأشياء، لقد أكرهت الصحابيات على هجرة أوطانهن، وليس شىء أقسى على النفس من ذلك، لكنهن استعذبن هذه القسوة حين تعارض حب الوطن مع مصلحة العقيدة، لقد فهمن أن إنسانية الإنسان ليست إلا بالدين وبالعلاقة الرائعة مع الله - عز وجل -، وهنا صار فراق الوطن واجباً مفروضاً.

هاجرت الصحابيات مع الصحابة، وكان حجم التضحيات بالأرض والديار والأموال، بله بالأهل والود بالغاً، أضف إلى ذلك ما كانوا يلاقون من أهوال السفر ومشاقه، فلقد كانت الهجرة ضرباً من ضروب العذاب والألم فى سبيل الدين، وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة أقسى بأخرى أقل قسوة.

ومن أمثلة معاناتهن، ما رواه ابن إسحاق: فى هجرة زينب بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنها لما فرغت من جهازها قدم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج يقود بها نهاراً، وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال قريش، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود، فرموها بالرمح، وكانت حاملا فيما يزعمون، فسقط ما فى بطنها.

ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره يونس بن بكير فى رواية السيرة عن أبى هريرة، قال: كانت امرأة من دوس يقال لها أم شريك أسلمت فى رمضان فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فلقيت رجلا من اليهود، فقال: مالك يا أم شريك؛ قالت: أطلب من يصحبنى إلى النبى (صلى الله عليه وسلم). قال: تعالى، فأنا أصحبك.. وذكر الحديث بطوله.

وأخرجه ابن سعيد من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى مرسلاً؛ قال:... فأمست صائمة، فقال اليهودى لامرأته: لئن سقيتها لأفعلن؛ فباتت كذلك حتى إذا كان آخر الليل إذا على صدرها دلو موضوع وصفن، فشربت، فقال اليهودى؛ لقد شربت، فقالت: لا. وأم أيمن هاجرت إلى المدينة ماشية ليس معها زاد.

وروى ابن إسحاق أيضاً عن أم سلمة قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج للمدينة رحل على بعيره ثم حملنى عليه، وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى، ثم خرج يقود بى بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؛ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذونى منه قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، فقالوا لا والله لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا ابنى سلمة بينهما حتى خلعوا يده وذهب به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى، قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فلا أزال أبكى حتى أمسى: سنة أو قريباً منها حتى مر بى رجل من بنى عمى، فرأى ما بى فرحمنى، فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت: فقال لى ألحقى بزوجك إن شئت، قالت ورد بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى.. فرحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى فى المدينة.. وما معى أحد من خلق الله، أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى، حتى إذا كنت بالتنعيم، لقيت عثمان بن طلحة فقال لى: إلى أين يا ابنة أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة، فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله إلا الله وابنى هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ خطام البعير فانطلق معى يهوى بى، فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه.

والقصة وحدها، وبلا تعليق كافية للتدليل على قدر المعاناة والنصب الذى لاقته أم سلمة (رضى الله عنها)، وقد حبست عن زوجها بمكة نحو السنة، ثم حيل بينها وبين وليدها، وليس أدل من قولها: والله ما أعلم بيت الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة.

وقصة أم سلمة والصحابيات، ومعاناتهن تؤكد أنه لم يكن مقبولا، لا من المسلم ولا من المسلمة إلا أن يهاجر. وأن وحدة أم سلمة فى هجرتها ثم

استكمالها الرحلة مع غير ذى محرم لها، وكان على شركه، مع هجرة أم شريك مع يهودى، كل ذلك يدلل على أهمية الهجرة، وأثرها فى كمال الإيمان بالدين.

دور النساء فى هجرة النبى إلى المدينة:

ولم تغب الصحابيات عن هجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) وإنما كان حضورهن ظاهرا فى جميع مراحلها، ودقيق أدوارها، وتلك هى الأمثلة:

رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم: وكانت رقيقة هى التى حذرت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مما بيته له المشركون، حدثت أنها قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن قريشا قد اجتمعت تريد بياتك الليلة. قال راوى الحديث: فتحول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن فراشه وبات عليه على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

ولعل هناك من يقول: وأى عظمة تجدها فى امرأة سمعت خبراً فألقته كما سمعته؛ ذلك قول من لم يستبطن الأمر، ويتبين دخيلته، فإن فئة قليلة العدد خطيرة الغرض من هامات القوم وأشداء فتيانهم، بيَّتوا أمرهم واحتجزوا خبرهم عن بقيتهم،.. وتعاقدوا وتعاهدوا ألا يذيعوه حتى يمضوه، فئة ذلك شأنها.. ليس بالهين كشف أمرها واستنقاذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من كيدها وشر غائلتها، ولنا أن نتخيل حجم الجهد والتدبير ونفاذ الحيلة الذى بذلته تلك المرأة وقد أنافت على المائة، ولم تأمن على نقل الخبر ابنها (مخرمة) وهو من لحمة النبى وذوى صحبته.

مارية خادم الرسول: وكانت هى التى تطأطأت للنبى (صلى الله عليه وسلم) حين صعد حائطا، ليلة فرَّ من المشركين.

أسماء وعائشة بنتا أبى بكر الصديق: قال ابن إسحاق: ولم يعلم، فيما بلغنى، بخروج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحد حين خرج إلا على وأبو بكر وآله، وقال عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله لرسوله فيه بالهجرة.. أتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها.. فجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عنده أحد إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أخرج عنى من عندك ! قال يا رسول الله ليس علينا عين، إنما هما ابنتاى..، قال إن الله أذن لى فى الخروج والهجرة.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من جرابها فربطت به على فم الجراب. وإذا كان إسحاق قد ذكر أن سر الهجرة كان عند على وأبى بكر وآله، فإننا نضيف رقيقة ومارية.

ولما استقر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) المقام بالغار، كانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، وقصتها فى ذلك مشهورة. ولم يقف الأمر عند ذلك، قالت أسماء لما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل،.. فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبى بكر؟ قلت: لا أدرى والله أين أبى ! قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى، ثم انصرفوا.

كما لا يصح إهمال دور أسماء فى طمأنة جدها، حين تفقد المال الذى أخذه معه أبو بكر فى هجرته، وجعل يسأل عنه فى جزع، ويقول لأسماء: والله لقد فجعكم بماله مع نفسه. فقالت أسماء: كلا، لقد ترك لنا خيراً كثيراً، وأخذت بيده، ووضعتها على كوم من الحجارة قد غطته، وكان قد عمى، فقال: لا بأس، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم. قالت: أسماء: لا والله، ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

وإن رواية أسماء لحديث الهجرة والدقة فيه لتحمل دلالة قوية على شدة وعيها بما كان يجرى فى مكة وشدة اهتمامها بالدعوة، ومتابعتها لأحداثها. ثم لحقت أسماء بالمهاجرين بعد ذلك، ومما يسترعى الانتباه أنها (رضى الله عنها) قد هاجرت فى أيام حملها الأخيرة؛ عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجت وأنا متم (أتممت أشهر الحمل) فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته.

وهكذا وطئت هجرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بيد المرأة، فلم تغب كما رأينا عن واحد من أدوارها: محذرة ومشيرة، ومعينة بنفسها لتيسير خروج النبى (صلى الله عليه وسلم)، وأمينة على سر الهجرة، ثم أحد العناصر المهمة فى إيصال المؤن إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه فى الغار.. هذا إلى ما لاقته من نصب لإتمام هذا الأمر، وما لاقته من فحش المشركين وخبثهم.

الممتحنات:

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه، فلما هاجر النساء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإلى الإسلام، أبى الله أن يرددن إلى المشركين من امتحن، فعرفوا أنهن إنما جئن رغبة فى الإسلام، وأمر برد صدقاتهن إلى أزواجهن إن احتبسن عنهم.. فأمسك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النساء ورد الرجال، ولولا الذى حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النساء كما رد الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذى كان بينه وبين قريش لأمسك النساء ولم يردد لهن صداقا.

وجاء المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومئذ وهى عاتق، قال ابن سعيد: ولم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مهاجرة إلى رسول الله ورسوله إلا أم كلثوم، خرجت من مكة وحدها، وصاحبت رجلا من خزاعة حتى قدمت المدينة، فجاء أهلها يسألون النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يرجعها إليهم، فقالت: يا رسول الله أتردنى على المشركين فيستحلوا منى ما حرم الله، ويفتنونى فى دينى.

فأنزل الله فيهن ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الممتحنة:١٠).

وإذن فلقد كانت المرأة تمتحن بعد هجرتها، بل تبايع على هذه الهجرة. وإذا أردت أن تعرف دلالة هذه المبايعة على قدر إيمانهن من جانب، وعلى تمام أهليتهن للمسئولية والتكليف، فاعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يبايعهن على الهجرة فى الوقت الذى كان (صلى الله عليه وسلم) يأبى على بعض الأعراب أن يبايعهم عليها، لما كانوا عليه من الضعف، فكان (صلى الله عليه

وسلم) يخاف ألا يقوموا عليها وألا يقوموا بحقوقها وأن ينكصوا على أعقابهم، لأن أمر الهجرة شديد.

وسمى ابن حجر بعض المؤمنات الممتحنات، فذكر منهن: أميمة بنت بشر، وكانت تحت حسان بن دحداحة، فنفرت، وهو كافر يومئذ، فزوجها النبى سهل بن حنيف. ومنهن أيضاً سنية بنت الحارث.

روى ابن عباس أنها كانت ممن هاجر فى الهدنة، فامتحنت؛ فقالت ما جئت إلا رغبة فى الإسلام. ومنهن أم الحكم بنت أبى سفيان، وبروع بنت عقبة، وكانت تحت شماس بن عثمان، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة، وكانت تحت عمرو بن عبد ود .

وأيضاً منهن بنت حمزة بن عبد المطلب. وكان ممن خرج من النساء فى تلك المدة سبيعة بنت الحارث، وقد ذكر الفاكهى أنها أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية إثر العقد وطى الكتاب ولم تخف، فنزلت آية الامتحان فامتحنها النبى (صلى الله عليه وسلم) ورد لزوجها مهر مثلها وتزوجها عمر.

إن إقدام هؤلاء الصحابيات الجليلات على الهجرة بعدما أبرم العقد وعلمن - ولا شك - شروطه "ولم تخفن"، حتى قيل إن أم كلثوم مشت على قدميها من مكة إلى المدينة، ليدلل دلالة قوية على حجم إحساسهن بالمسئولية.

ولم يعلم أن امرأة من المسلمين لحقت بالمشركين. قال الإمام الزهرى: "وما نعلم أحدا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها".

ولقد كان موقف المشركين من الدعوة موقف المعارض الذى لا يعطى النصفة من نفسه، والخصم الذى لا يعرف الشرف فى خصومته..؛ قال البعض فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، "بلغنا أنها نزلت فى مشركى أهل مكة؛ إذ كان بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عهد فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا: إنما خرجت تفجر".

وإذا كان سب المهاجرات وقذفهن يكاد يبدو كأمر شخصى أو اجتماعى على أقوى تقدير، فإن المتمعن فيه يدرك أنه كان أمراً سياسياً من قبل المشركين، أريد به قذف المؤمنات قذفاً يصدهن به عن الإسلام، وذم المؤمنين لينفر الناس عن الدين، وهو فوق ذلك قدح فى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودعوته.

الامتحان:

روى البخارى، عن عائشة (رضى الله عنها)، قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) يمتحنهن بقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ (الممتحنة: ١٠) إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن: "انطلقن فقد بايعتكن".

والسيدة عائشة (رضى الله عنها) تشير إلى شرط الإيمان، ويوضح هذا ما أخرجه الطبرى عن ابن عباس، قال: "كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله".

وروى البخارى عن السيدة عائشة (رضى الله عنها) أيضاً قالت: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية، بقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الممتحنة:١٢).

فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم): قد بايعتك، كلاماً، وهذا الحديث يدل على أن المحنة المذكورة فى قوله "فامتحنوهن" هى أن يبايعهن بما تضمنته الآية المذكورة وهى الآية التى يبايع عليها المؤمنات عامة.

غير أنه كانت هناك زيادات فى "الامتحان" لم تكن فى "البيعة" الأساسية اقتضتها طبيعة الموقف، وأهمية تمحيصه؛ ففى رواية عن ابن عباس: "كان يمتحنهن: والله ما خرجت من بغض زوج، والله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، والله ما خرجت التماس دنيا، والله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله".

وهو ما أطلق عليه "بيعة النساء"، وذلك أنه هو النص الذى تكرر وكانت عليه بيعة العقبة الأولى وبيعة المحنة عند امتحان المهاجرات، والبيعة التى كانت عند

فتح مكة، والبيعات التى كان (صلى الله عليه وسلم) يتعاهد بها جميع المسلمين فى المناسبات المختلفة، وهى البيعة التى بايع عليها النبى الرجال كما بايع النساء، وفيها كان قول رسول الله للرجال: "ألا تبايعوننى على ما بايع عليه النساء".

مكان المرأة السياسى فى البيعة:

وهكذا لم تكن "البيعة" فى العهد النبوى بكل ما تعنى من دلالات سياسية، وعقدية، خاصة بالرجال، بل كان أغلب النساء اللاتى اتصلن برسول الله (صلى الله عليه وسلم)قد أخذ عليهن ما أخذ على الرجال. ويكفى مطالعة كتب تراجم الصحابيات المبايعات ليتأكد ما ذكرنا، فلقد استهل ابن سعد تراجم النساء فى الجزء الثامن بذكر ما بايع عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النساء وفى ذلك إشارة واضحة إلى أساسية المبايعة فى حياة المسلمات جميعاً على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ثم قدم تراجمه لعدد من الصحابيات المبايعات يربو على الستمائة صحابية، رتّبهن على القبائل، وعرض لهن على النحو التالى:

- تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم.
- تسمية غرائب نساء العرب المسلمات المبايعات المهاجرات.
- تسمية نساء الأنصار المسلمات المبايعات.

واستمر اهتمام المؤرخين بتراجم الصحابيات المبايعات فكتب ابن حبيب فى كتابه (المحبر) قائمة تجمع ثلاثمائة وواحدة وستين صحابية مبايعة. وذكر ابن الأثير فى كتابه (أسد الغابة)، وابن عبد البر فى كتابه (الاستيعاب)، وابن حجر فى (الإصابة) أعداداً وفيرة من الصحابيات اللاتى وصفن بالمبايعة.

هذا وينبغى التأكيد أن مبايعة النساء النبى (صلى الله عليه وسلم) تقوم على أساسين: الأول باعتباره (صلى الله عليه وسلم) الرسول المبلغ عن الله، والثانى باعتباره (صلى الله عليه وسلم) إمام المسلمين، ومما يؤكد وجود الاعتبار الثانى قوله تعالى: {ولا يعصينك فى معروف}، وقوله (صلى الله عليه وسلم) عن طاعة الأمير: "إنما الطاعة فى المعروف".

ومما تقدم يتضح لنا أن بيعة النساء لا تقتصر على البيعة الإيمانية، ولا تختزل فى مجرد بيعة على عدم النياحة، أو غيرها من الأخلاقيات، وإنما تشمل

الطاعة فى المعروف، والتأييد والنصرة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فهى التزام سياسى واضح، حيث بايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النساء كل هذه البيعات السابقة، الأمر الذى تبدو معه بيعة النساء للنبى (صلى الله عليه وسلم) بيعة واجبة عيناً على كل مسلمة.

إشكاليات (بيعة النساء) فى الدراسات الحديثة

على الرغم من هذه النتائج التى نستخلصها من البحث فى الحركة السياسية الفعلية التى كانت تتم على عين الله ورسوله، فإن معظم الدراسات جنحت تحت ضغط التراكمات الفكرية التى نتجت عن غياب المنهجية الإسلامية وعدم الاستناد إلى "الأصول" من جانب، وعن افتراض نقص أهلية المرأة من جانب آخر على التفرقة بين بيعة الرجال وبيعة النساء، وتأسيس هذا التمييز فى نظرهم على ثلاثة أسس:

الاختلاف فى الكيفية: إذ لا تتطلب فيها المصافحة كما فى بيعة الرجال.

الاختلاف فى الحدود: إذ لا تتعدى البيعة الطاعة فى المعروف - فى زعمهم، وبالفهم الضيق لمعنى المعروف -، فالنساء لا دخل لهن فى البيعة على الإمامة والسلطان.

الاختلاف فى مساحة المسامحة: فإنه يتوسع فى أمر بيعتهن ما لا يتوسع مع غيرهن؛ فحيث يكون عدم الوفاء بها فى الرجال انتقاصا فى دين المرء وتعديا على حق من حقوق الله فهى فى النساء غير حاملة لهذا.

مسألة الكيفية:

فأما ما يتصل بالأساس الأول، فإنه مما لاشك فيه أن القارئ الكريم بعد الاستعراض الذى ذكرناه فى هذا المبحث يدرك كيف أن الغياب عن "الأصول" يعد واحداً من أبرز أزمات الفكر عامة، وفيما يتصل بقضايا المرأة على وجه الخصوص، فقضية المصافحة فى البيعة والتى استغرقت معظم الكتابات الحديثة فى بيعة النساء لا تعدو كونها ضابطا أخلاقياً، لا يؤثر فى الحقيقة السياسية للمبايعة معهن، وتؤكد ذلك رواية الزهرى: "ما مس رسول الله بيده امرأة قط، إلا أن يأخذ عليها" .فقال استثناء هنا منقطع تقديره: ما مس يد امرأة قط ولكن يأخذ عليها البيعة، فعدم المصافحة لا تعنى عدم تحقق المبايعة،

وقال النووى: هذا التقدير «أى القول بأخذ النبى البيعة على النساء» مصرح به فى الروايات الأخرى، فلا بد منه. وهو واضح جدًّا فى رواية النسائى عن أميمة بنت المنكدر: "إنى لا أصافح النساء، ولكن سآخذ عليكن".

مسألة حق المرأة فى البيعة على الإمامة:

وأما ما يتصل بالأساس الثانى، والقائل بأنه لا دخل للنساء فى البيعة على الإمامة والسلطان، إذ لا تتعدى مبايعتهن البيعة على المعروف، فإنه قول ينقصه الفهم الدقيق والصحيح لمعنى "المعروف"، الذى تعرضنا له، ولدلالاته السياسية من جانب، ولقد تعرضت الدراسة لمبايعات الصحابيات، فى جميع المواقف، وبكل الصيغ الواردة فى المبايعات، انتهاء بالمبايعة على الموت أو على عدم الفرار.

مسألة مساحة المسامحة فى الالتزام بالبيعة:

أما قضية المسامحة فى شأن المرأة، فإنها لا تكاد تنهض فى مواجهة الممارسة والالتزام السياسى الكامل للمرأة إزاء المبايعات التى قامت بها، ولقد كانت شخصية كشخصية نسيبة بنت كعب التى بايعت عند الشجرة وحضرت أحداً وخيبراً وحنيناً والفتح واليمامة، دليلاً على هذا الالتزام بالبيعة على الجهاد رغم أنها بيعة كفائية.

غير أن فروض الكفاية على أهلها فروض عين؛ أى أنه ينبغى للمبايع أن يلتزم ببيعته متى قام بها، ومتى بايع فقد وجبت عليه وصار ملزما بتبعاتها، رجلا كان، أو امرأة، فلم يكن هناك مجال لمسامحة النساء كما ذهبت التقسيمات التى ذكرنا، الأمر الذى يؤكد فهم الصحابيات لوجوب التزامهن بالبيعة أيا كان نوعها.

ودل على عدم وجود مجال للمسامحة تراجع بعض الصحابيات عن المبايعة خشية من الشرط؛ فلقد أخبر وكيع بن الجراح.. عن قيس بن أبى حازم أن النسوة لما جئن يبايعن النبى (صلى الله عليه وسلم) بسط رداءه فوق يده فبايعهن وخشين الشرط، فلو كان فى الأمر مسامحة لما خشيت هؤلاء الصحابيات مسئولية المبايعة على ما يشترط عليهن (صلى الله عليه وسلم).

وروى البخارى فى رواية أم عطية السابقة: "فقبضت امرأة يدها، فقالت: أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها، فما قال لها شيئاً فانطلقت ورجعت فبايعها". فى هذه الرواية قالت أم عطية إن امرأة ساعدتها فى النياحة، فلا بد من مساعدتها على ذلك قضاء لحقها ثم لا تعود، فرخَّص لها النبى (صلى الله عليه

وسلم) فى ذلك قبل المبايعة ففعلت ثم عادت فبايعت، فلو كان فى المبايعة مسامحة لما كان هناك مبرر لتأخير بيعتها حتى تساعد من ساعدتها، لما فى المبايعة من العهد والإلزام.

ولو كانت هذه المسامحة المزعومة واردة بالنسبة للمرأة لما بايعها (صلى الله عليه وسلم) أصلا كما فعل مع الغلام والعبد، لانتفاء المسئولية عندهما وليس ذلك عند المرأة؛ فلقد قال الهرماس بن زياد: "مددت يدى للنبى (صلى الله عليه وسلم) وأنا غلام ليبايعنى فلم يبايعنى"، وذلك لما فى المبايعة من العهد والإلزام، والصغير ليس أهلا لذلك، بل لا يلزمه شىء إن ألزمه نفسه، فأى فائدة فى البيعة معه؟!

وكذلك كان أمر المبايعة مع العبد؛ فعن جابر قال: جاء عبد فبايع النبى على الهجرة ولا يشعر النبى أنه عبد، فجاء سيده يريده فقال النبى: "بعنيه"، فاشتراه بعبدين أسودين ثم لم يبايع أحداً حتى يسأله أعبد هو؟ لقد طلب من سيد العبد البيع إعانة لذلك العبد.

وإذن فإن غياب المرأة لم يكن أصلاً شرعياً يعمل به ولا سنة راشدة تجب متابعتها، وليس له دلالة الرجوع عما كانت عليه مبايعات النساء للنبى، وليس فيه معنى إهمال النساء لأمر الخلافة وشأنه ما قدمنا.

بيعة النساء للخلفاء فى ضوء المفاهيم

والواقع أنه ينبغى الإشارة إلى أن فهم غياب أسماء الصحابيات فى البيعة للخلفاء الراشدين على أنه سنة راشدة عمل بها، لم يكن فى الدراسات الحديثة إلا ناتجاً، مع ما سبق به القول، عن الاختلاط فى المفاهيم، وعن إسقاط الدلالات المعاصرة للمفاهيم السياسية، التى هى انعكاس للمفاهيم الأوروبية التراثية عندنا، بحيث نفهم الثانية بدلالة الأولى.

وهذا أمر لا تفهم به بيعة النساء فى عهد الخلفاء الراشدين، ذلك أن السياسة المعاصرة تقيس مدى فاعلية المرأة السياسية فى الانتخابات بعدد الأصوات فيها، وهذا المقياس لا يصح أن نتعامل به مع بيعة النساء للخلفاء الراشدين؛ ذلك أن هذا المجتمع لم يكن معنيا بدرجة المؤسسية، حسب تعبيرنا المعاصر، كما لم تكن تعنيه الوجاهة الاجتماعية قدر ما كان يعنيه أن تتحقق الغايات والمقاصد من النظم، ولقد كانت الغايات والمقاصد متحققة فى البيعة للخلفاء الراشدين جميعاً.

أضف إلى ذلك أن الدولة نفسها كانت حديثة عهد بالنظم وآلياتها، فكان طبيعيا ألا تكون التفاصيل كلها قد تكاملت، ومن هنا تأتى أهمية القول إن البحث فى أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بالمقاصد العامة منها، لا يؤدى إلى شىء.

فإذا انضاف إلى ذلك أن الحكمة التشريعية قد قضت أن تقرر الدعائم التى تقوم عليها الحكومة فى الإسلام غير مفصلة، لأن تفصيلها مما يختلف باختلاف الأزمات، والبيئات فلقد أقر سبحانه أسساً عادلة لا تختلف فيها أمة عن أمة، وأفسح للناس أن يقرروا على هذه الأسس ما يرونه من التفصيلات كفيلاً بمصالحهم، وملائماً لأحوالهم.. والبيعة، ومن يتولاها، وشرائطها مما يدخل فى هذه الدعائم. إذا انضاف ذلك إلى ما لدينا فإن ما ذهبنا إليه من أصالة حق المرأة فى اختيار الخلفاء، يصبح أمراً مؤكداً.

أثر غياب المرأة فى مبايعات الخلفاء:

ورغم ما سبق فإن غياب المرأة عن مبايعات الخلافة، وإن كانت له أسبابه، فى هذه المرحلة القدوة، كان خطراً على موقف المرأة السياسى فيما تلاه من

عصور، وخطراً على الإسلام ذاته بتشويه رؤيته واحترامه لأهمية المرأة وقدرتها على الفعل السياسى؛ فلقد قصر فهم غير المدققين من الذين غاب عنهم شمول الخطاب القرآنى للمرأة مع الرجل لإقامة الدين وحفظه وسياسة الدنيا به، وغابت عنهم خطورة ما أكد عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) من أنه "من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"، وغاب عنهم الاعتبار السياسى فى بيعة النبى (صلى الله عليه وسلم) للنساء كما غاب عنهم أن غياب المرأة فى مبايعة الخلفاء لا يفهم إلا فى ضوء الظروف التاريخية والبيئية لعمليات المبايعة وأنظمتها، وفى ظل الفهم الأصيل لمعنى الكفاية.

كما غاب عنهم أن هذا الغياب لم يخل بالمسئولية السياسية التى هى مقصود المبايعة وغايتها كما وضحنا. ظن هؤلاء المفتقدون لاسمها فى البيعة للخلفاء الراشدين أنه لا مدخل لهن فى اختيار الإمام أو السلطان. على الرغم من أن "الشرك ليس بحجة". فعدم ممارسة المرأة للبيعة فى عهد الراشدين ليس معناه انتفاؤه من المنظومة السياسية للأمة.

وكان الأخطر من هذه الظنون وتلك الآراء ما تمثل فى الاجتهادات الفقهية التى ما برحت تكرس إقصاء المرأة وإلغاءها من المجتمع؛ فذهب بعضها - خلافا لما ذكر المحققون من العلماء - إلى اشتراط الذكورية مع الشروط التى يجب توافرها فيمن يختارون الإمام فيهم، بدعوى أن النساء مأمورات بملازمة الخدور منهيات عن مباشرة الأمور ومزاحمة الخطوب، فهن قليلات الخبرة فى هذه الأمور.

ولست أدرى: من الذى نهاهن؟ ومن أمرهن؟ ولماذا منعن من مباشرة الأمور؟ ألأنهن قليلات الخبرة؟ أم لأنهن منهيات عن مباشرة الأمور؟ فأما إذا كان السبب أنهن قليلات الخبرة، فإن الخبرة لا تأتى أبداً لمن لا يباشر الأمور، فكيف نمنعها من مباشرتها فتفقد خبرتها، ثم نقول إنه لا مدخل لها لأنها قليلة الخبرة ؟!.

وأما إذا كان السبب هو أنهن منهيات عن مباشرة الأمور، فهو قول يناقض صريح الكتاب والسنة، والممارسة التاريخية التى تمت على عين الله، ورسوله (صلى الله عليه وسلم).

إن ترك المرأة لموقعها فى البيعة، مع عوامل أخرى، أفضى إلى تقليص دور المرأة السياسى فى حياة الأمة عبر التاريخ الطويل، بل أفضى إلى جعل العودة السياسية لها أشبه بالأمر المتعذر، فلقد بدت عودتها مفسدة فى نظر الذين

اعتبروا الغياب الطويل هو الأصل، وهذا هو أخطر ما فى المسألة، أن يترسخ فى الأمة فكر خاطئ يضلل به الناس.

لقد كان الخطاب الشرعى للرجل والمرأة بتحمل مسئولية حفظ الدين وإقامة الشريعة عين مصلحة ضمنت لقضايا الأمة وغاياتها العليا، حين تحققت بهذا الخطاب احتشادا كاملاً من الرجال والنساء على السواء، فصعدت الأمة صعودها المجيد.

الغزوات الكبرى التى ذكرت فيها المرأة

كانت الفعاليات الأولى للجهاد قد بدأت فى السنة الأولى من الهجرة على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) حيث كانت أولى السرايا. ظل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقيماً بالمدينة، داعيا إلى الله، ومعلما مما علمه الله باقى شهر ربيع الأول، الشهر الذى قدم فيه المدينة، وباقى العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة ثم خرج غازيا فى صفر.

غزوة بدر الكبرى:

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة، بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خبر العير المقبلة من الشام لقريش صحبة أبى سفيان وهى العير التى خرجوا فى طلبها لما خرجت من مكة وكانوا نحوا من أربعين رجلا وفيها أموال عظيمة لقريش، فندب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس للخروج إليها، خرجت معه الأنصار فى هذه الغزاة، ولم يكن غزا بأحد منهم قبل ذلك، ولم يحتفل لها احتفالا بليغاً لأنه خرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان.

وقال النبى (صلى الله عليه وسلم): "لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا" فاستأذنه رجال ظهورهم فى عوالى المدينة أن يستأنى بهم حتى يذهبوا على ظهورهم فأبى، ولم يكن عزمهم على اللقاء ولا أعدوا له عدته، ولا تأهبوا له أهبته ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ومن تخلف لم يلم لأنهم لم يخرجوا على قتال، وإنما خرجوا للعير، وأما قريش فد خرجت على الصعب والذلول فى تسعمائة وخمسين مقاتلا معهم مائتا فرس يقودونها، ومعهم القيان يضربن الدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.

وهكذا فإن ملاحظة غياب شخص المرأة المسلمة عن هذه المعركة الكبرى من معارك المسلمين يصبح معللاً بما ذكرنا من ظروف المعركة، وكون النفير جاء بغتة، ومن ثم فإن الذى لا شك فيه أن هذا الغياب لم يكن أمراً متعمدا ولا سياسة معتمدة، ولم تذكر الكتب التاريخية فى معركة بدر المرأة المسلمة الحاضرة فى المدينة إلا فى رواية واحدة فيما أعلم، عن تطلع إحدى الصحابيات للجهاد.

وفى رواية أم ورقة، حيث قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين غزا بدراً: أتأذن لى فأخرج معك أداوى مرضاكم لعل الله يهدى لى شهادة؟ قال: إن الله مُهْدٍ لك شهادة. فلم ينكر (صلى الله عليه وسلم) عليها رغبتها لكنه لم يأذن لها فى تلك الغزاة، لما قد ذكرنا من أسباب.

وأما الروايات الأخرى فكانت عن النسوة المسلمات المستضعفات فى مكة، ولعل ذلك ناتج عن الأثر المعنوى الهائل الذى أحدثه انتصار بدر لدى المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، والذين وجدوا فى أنفسهم بعد بدر قوة وعزاً.

وقد كان حال هؤلاء المستضعفين، وهدف استنقاذهم من مكة وقد برموا المقام بها واحداً من الأهداف التى شرع لأجلها القتال؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً** ﴾(النساء:٧٥).

وكانت الرواية عنهن من خلال رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب التى فسرت بأنها بلاء ينتظر قريشاً، وكانت قد حكت الرؤيا لأخيها العباس، فقال لبعض رفقائه ففشا الحديث بمكة، وتطاول أبو جهل فنال من نساء بنى عبد المطلب قائلا للعباس: يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية: أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؛ فسنتربص بكم ثلاثا فإن لم يكن فى ذلك شىء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب.

قال العباس: فلما أمسيت، لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء

وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غير الشىء مما سمعت، قال: قلت قد والله فعلت، ما كان منى إليه كبير.. ولما أراد العباس أن يتعرض لأبى جهل بعدما أثرنه نساء بنى عبد المطلب، إذا بالنذير يستصرخ قريشاً لندرك العير التى مع أبى سفيان. وكان هذا، وما حدث فى بدر من انهزام المشركين بداية تحقق رؤيا عاتكة.

وإذا كانت المرأة لم تشارك بنفسها فى هذه الغزوة للأسباب التى بينتها آنفا إلا أنها قد شاركت بابنها وزوجها وأبيها وأخيها، حتى لقد اجتمع لإحداهن وهى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة خصيصة لا تجد لغيرها، وهى أنها امرأة صحابية لها سبعة أولاد شهدوا كلهم بدراً مع النبى (صلى الله عليه وسلم)، واستشهد منهم اثنان هما (معاذ ومعوذ)، فهل يمكن أن نعد هذه الصحابية مع الغائبين عن المعركة؟! وبعض نفسها بل كل نفسها هناك!.

ولقد كانت المرأة فى هذا العهد تربى أبناءها للجنة وللجنة فقط؛ جاءت الربيع بنت النضر لما استشهد ابنها حارثة بن سراقة إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقالت: أخبرنى عن حارثة فإن كان فى الجنة صبرت واحتسبت، وإن كان غير ذلك اجتهدت فى البكاء، فقال (صلى الله عليه وسلم): "إنه أصاب الفردوس الأعلى".

غزوة أحد:

لما قتل الله أشراف قريش ببدر، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم، وجاء أبو سفيان على أطراف المدينة فى غزوة السويق، فلم ينل ما فى نفسه، أخذ يؤلب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى المسلمين، ويجمع الجموع، فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش، وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا، وليحاموا عنهن، ثم أقبل بهم نحو المدينة، فنزل قريبا من جبل أحد وذلك فى شوال من السنة الثالثة. واستشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة.

فمنهم من أشار على رسول الله المكوث فى المدينة، ومنهم من قال الخروج لملاقاة العدو فخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) على رأس هذه المجموعة، وجعلوا ظهرهم لجبل أحد، وأحرز المسلمون انتصاراً كبيراً فى بداية المعركة، لكن المسلمون انشغلوا بجمع الغنائم فكر عليهم المشركون وقتلوا منهم سبعين صحابياً، وجرح رسول الله وكسرت بعض أسنانه.

كان رأى النبى ألا يخرج من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت، وكان ذلك أنصر لهم على عدوهم كما قال ابن القيم، وكان هو الرأى.

أما دوافع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن كان على رأيه فى البقاء داخل المدينة فهى الاستفادة من حصون المدينة وطاقات كل المواطنين مما يرجح فرصة دحر الأعداء، وهذا هو ما يسمونه فى علم العسكرية الحديث بدفاع الصفحة، وهو أن تكون كل نقطة وكل بقعة على صفحة الوطن مقاومة ودفاعاً، بأن يهب كل فرد فى الأمة لدفع الغازى وعرقلة تقدمه، ومهاجمة مواصلاته ومؤخرته ودورياته وأفراد قواته، بل ومعسكراته.. وهو قتال مرير يضيع مكاسب الغزاة ويجعل من انتصارهم هزيمة، غير أن جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، أشاروا عليه بالخروج وألحُّوا عليه فى ذلك، وأشار عبد الله بن أبى بالمقام فى المدينة وتابعه على ذلك بعض الصحابة، فألح أولئك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنهض ودخل بيته ولبس لباس الحرب وخرج على أحد.

أما كيف كانت المرأة المسلمة فى أحد، فإن تتبع النصوص هو خير جواب عن ذلك:

كانت جماعة النساء أول النهار فى الآطام، وهى حصون مبنية بالحجارة وكانت منزل الكبار والضعفة من أمثال أبى حذيفة اليمان بن جابر، وثابت بن وقش، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه فى آطم حسان لأنه كان من أحصن الآطام.

فلما بدأت المعركة كان من عمل النساء فى معركة أحد سقاية المجاهدين: روى أنس بن مالك قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها فى أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم. لم تكن أم سليم وحدها، فقد روى أيضا عن أنس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار ليسقين الماء ويداوين الجرحى.

وكانت منهن أم سليط الأنصارية، روى البخارى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قسم مروطا بين نساء أهل المدينة فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى

عندك، يريدون أم كلثوم بنت على، فقال عمر: أم سليط أحق به، فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد.

وكانت حمنة بنت جحش ممن شهد أحدا فكانت تسقى العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم، وقال ابن مسعود: إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، ولما انهزم الناس جاءت صفية بنت عبد المطلب وبيدها رمح تضرب فى وجوه الناس وتقول: انهزمتم عن رسول الله.

الفصل السادس

المرأة فى الفقه السياسى

إن مجال العمل السياسى هو المجال الذى يدور حوله الجدل الفقهى، ويختلف الفقهاء فى مشروعية وعدم مشروعية دخول المرأة فيه، واشتغالها به، وأهليتها وعدم أهليتها الشرعية لذلك.

فمن الفقهاء من يذهب إلى عدم أهلية المرأة الشرعية للعمل السياسى مطلقاً، ومنهم مَن يفصِّل بين أنواع العمل السياسى، ولكنهم جميعاً متفقون، على الظاهر، على عدم أهلية المرأة شرعاً لتولى رئاسة الدولة.

إن الأدلة الشرعية الواردة فى بيان أحكام المرأة والمحدِّدة لوظيفتها فى المجتمع المسلم، ظاهرة فى أن المهمة الأولى وذات الأولوية التى أعدَّ الله تعالى لها المرأة جسديًّا ونفسيًّا هى: تكوين الأسرة والقيام بشئونها زوجاً وأولاداً، على مستوى التربية، ورعاية العائلة، وإدارة بيت الزوجية، ولذلك فإن التشريع الخاص بالمرأة يتمحور حول هذه المهمة من حيث تكوين الأسرة بالزواج، وعلاقات الزوجين فيما بينهما وما لكل واحد منهما على الآخر من حقوق، وعلاقتهما مع الأولاد وعلاقة الأولاد بهما، ومسئولياتهما عنهم، ومن حيث حَلّ العلاقة الزوجية وانحلالها بالطلاق والموت، وآثار ذلك على جميع أفرادها.

فهذه الأمور وما يتصل بها ويتفرع عنها بالنسبة إلى الأرحام والمجتمع هى موضوعات الأحكام الشرعية التى وردت فى شأن المرأة فى حياتها العملية (خارج نطاق العبادات).

لكن هل هذه هى المهمة الوحيدة المشروعة التى يجوز للمرأة المسلمة أن تقوم بها وتكرس لها حياتها؟.

فلا يجوز لها أن تهتم بما عدا حياتها الزوجية والعائلية من شئون زوج وأولاد وما يحتاجون إليه من خدمة ورعاية وتربية.

أو أن لها أو عليها ـ مع ذلك ـ أن تقوم بمهمات أخرى فى الحياة العامة، فى المجال الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، إلى جانب مهمتها الأساسية زوجة وأُمّاً فى نطاق الحياة العائلية، كما هو الشأن فى الرجل الذى يكوّن الأُسرة. وهو مسئول عن الزوجة والأولاد رعايةً وتربية ونفقة، وله ـ مع ذلك ـ أو عليه أن يشارك فى أنشطة سياسية واجتماعية واقتصادية فى الحياة العامة للمجتمع؟.

لا ريب فى أن تكوين وإدارة الأسرة والقيام بشئون الحياة الزوجية والعائلية ليست المهمة الوحيدة المشروعة للمرأة فى التشريع الإسلامى، وإن أجلّ وأعظم مهماتها، بل لها، وعليها فى بعض الحالات ـ أن تقوم بمهمات أخرى فى الحياة العامة للمجتمع.

ويبدو أن الفقهاء متسالمون فى الجملة على مشروعية قيام المرأة بمهمات اجتماعية واقتصادية فى مجالات الزراعة والطب والتعليم والأعمال الإنسانية، بشرط ألا يؤثر ذلك على مهمتها الأساسية فى المجال العائلى.

المراد بالعمل السياسى ومجالاته:

مرادنا بالعمل السياسى هو العمل بالاستقلال والانفراد أو مع وفى ضمن أشخاص أو هيئات وتجمعات، فى مجال الحكم وتكوينه بتشكيل السلطات (تشريعيةً وتنفيذيةً وإداريةً) وتولى موقع من مواقع الحكم والسلطة فى رئاسة الدولة أو مجالس الشورى (النيابية) أو الحكومة أو الإدارة، ووضع ـ أو المشاركة فى وضع ـ السياسات العامة والخاصة للدولة فى الداخل والخارج، ومراقبة سياسات وقرارات وأعمال السلطات، ونقدها أو تأييدها، وتكوين الجمعيات السياسية والانخراط فيها.

وهذا العمل له مظاهر ومجالات متنوعة:

منها الاهتمام بالاطلاع والمتابعة لأعمال الحكومة، وآراء ومواقف السياسيين فى الشئون العامة للأمة والمجتمع، واتخاذ موقف معلن بالتأييد أو النقد أو

المعارضة. ومنها إبداء الرأى ابتداءً فى الشئون العامة، ومنها المشاركة فى الانتخابات النيابية والبلدية واختيار الأشخاص المناسبين والصالحين للقيام بالمسئوليات النيابية والبلدية.

ومنها التصدى لتولى منصب تمثيلى فى المجلس النيابى والبلدى والترشح فى الانتخابات لذلك. ومنها تأسيس الأحزاب والحركات السياسية المشروعة وقيادتها أو المشاركة فى القيادة.

ومنها الانتماء إلى الأحزاب والحركات السياسية، والقيام بأنشطة حزبية سياسية. ومنها التصدى لتولى مسئولية عامة قيادية إدارية أو وزارية. ومنها التصدى لتولى رئاسة الدولة فى مجتمع مسلم.

هذه هى المجالات المتصورة للعمل السياسى، على تفاوتها فى الأهمية ودرجة السلطة.

ويدور جدل فقهى حول أهلية المرأة المسلمة من الناحية الشرعية للعمل فيها، ولا بدّ - قبل البحث عن الأهلية الشرعية للمرأة للعمل السياسى - من بيان نظرة الإسلام إلى المرأة من حيث كونها إنساناً فى المجتمع، وهذا موضوع قيل وكتب فيه الكثير، ونعرض له على نحو الإجمال، لإضاءة موضوع البحث وتحديد طبيعته.

موقع المرأة فى النظام الإسلامى

إن المرأة فى النظام الإسلامى (نظام المعرفة والحقوق القيم) تتبوأ نفس الموقع الذى يتبوأه الرجل فى القيمة الإنسانية والمركز الحقوقى، وقد دلّت على ذلك آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة الشريفة المتواترة بالمعنى، فممّا ورد فى الكتاب العزيز فى هذا الشأن قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ (النساء/١).

وقوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ (آل عمران/ ١٩٥). وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ....** ﴾ (الإسراء /٧٠). ومما ورد من السنة جملة من الروايات نذكر منها:

١- رواية الكلينى، عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن على بن فضال، عن ثعلبة بن ميمون، عن أبى بكر الحضرمى، عن أبى عبد الله، قال:

"إن رسول الله صلى الله عليه وآله زوّج المقداد بن الأسود ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب، وإنما زوجه لتتضع المناكح، وليتأسوا برسول الله صلى الله عليه وآله، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم".

٢- رواية ابن بابوية، فى من لا يحضره الفقيه: "المؤمنون بعضهم أكفاء بعض".

٣- وبهذا المعنى ما روى فى سنن أبى داود، ومسند أحمد، وسنن الترمذى، من قوله صلوات الله عليه وآله: "إنما النساء شقائق الرجال"وعلى هذا الأساس أكّد الإسلام أهلية المرأة الكاملة للحياة الروحية والتسامى فيها إلى أعلى المراتب، فأهليتها للتقرب من الله تعالى بالطاعة والعبادة كأهلية الرجل تماماً، وقد ورد التصريح بهذه الحقيقة فى القرآن الكريم فى عدة آيات منها

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ (الأحزاب/ ٣٥).

ومنها قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة النحل/ ٩٧).

وبهذا أكّد طهارتها الذاتيّة وبراءتها الأصلية فى مقابل وصمها بالخطيئة الأصلية، لما نسب إلى السيدة حواء رضوان الله عليها من أنها ارتكبت المعصية الأولى بتناول الثمرة المحرّمة، كما شاع ذلك فى اليهودية والنصرانية وغيرهما من الديانات القديمة.

فبيّن الله تعالى أن مخالفة الإرشاد الإلهى لم تحصل من حواء وحدها بل شاركها فيها زوجها آدم عليه السلام، فنسب المخالفة إليهما تارة وخصّ بها آدم أخرى:

فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة/ ٣٦).
وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ (الأعراف/ ٢٠). فبيَّن أنهما استجابا لداعى الشيطان، وما ترتب على ذلك من عقوبة تمثلت فى الأثر الوضعى للمخالفة بإخراجهما من وضع النعمة الإلهية الذى كانا فيه ويبدى سوأتهما.

كما أشار القرآن إلى تفرد الرجل (آدم عليه السلام) بالمعصية، فقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه/ ١٢١).

ولعلّ نسبة مخالفة الإرشاد إليه وحده، مع عدم انفراده بها، ناشئة من مسئوليته القيادية فى الحياة العائلية، ولعل لذلك منشأ آخر أيضاً وهو الإيحاء بالرد على العقيدة الشائعة فى اليهودية والنصرانية بأن الشيطان أغوى حواء فارتكبت معصية النهى الإلهى بعدم الأكل من الشجرة، كما ورد ذلك مفصلاً فى بعض فصول التوراة والإنجيل المتداولة.

فما يقال من أن إفراد الرجل بالذكر فى هذه الآية مشعر بمسئوليته القيادية فى الحياة مطلقاً، لأن إفراده يوحى بأنه أكثر مسئولية من المرأة وأنها تابعة له ومتأثرة به؛ لا وجه له، لما ذكرنا من جهة، ولأنه تعالى حمّلهما المسئولية معاً وعلى نحو الاشتراك.

ثم إن الله تعالى بيّن أن آدم وزوجه تابا وقَبِلَ الله توبتهما، فقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف/ ٢٣)، ثم قطع الله تعالى دابر كل شبهة فى سريان آثار الذنب إلى غير مرتكبه، وبيَّن أن البشر بريئون مما ارتكب أبواهم، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/ ١٣٤).

وقد رتّب الله تعالى على تأكيد تمتع المرأة بالإنسانية الكاملة، وأهليتها الروحية والأخلاقية الكاملة، وطهارتها وبراءتها الكاملة؛ وجوب إكرامها واحترامها، وحرّم كلّ إساءة إليها وتشاؤم فيها، بنتاً وأختاً وأمّاً وزوجة وعضواً فى المجتمع.

فحرّم الله وأد الأُنثى، وذمَ التشاؤم بها وكراهة ولادتها، وسمّى ذلك حكماً

سيّئاً: فقال تعالى فى شأن الوأد: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير/٨، ٩).

وقال تعالى فى شأن التشاؤم بالأنثى، فى سياق بيان بعض ملامح ثقافة الشرك والجاهلية وسلوك المشركين: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل٥٨/ ٥٩)، وأوجب إكرام المرأة فى المجتمع بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء/ ٧٠).

وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ (الحجرات/ ١١).

وخصص المرأة أماً بأعظم التكريم والرعاية والاحترام، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ (الأحقاف/ ١٥).

ورفع المرأة الزوجة من مستوى الرقيق التابع للزوج إلى مستوى الشريك الكامل، فقال تعالى من جملة آيات كثيرة: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (سورة الروم/ ٢١).

لقد بيَّن القرآن الكريم أصول النظرة إلى المرأة فى جميع حالاتها وأصول السلوك تجاهها، وفصّلت السنة ذلك فى مئات الروايات التى لا تترك أدنى أثر للشك فى مساواة المرأة للرجل فى الكرامة، والأهلية، والحقوق.

وقد ترتب على ذلك وضعٌ حقوقىٌّ أثبته الشارع المقدس للمرأة فى مجال الأهلية الشخصية (فى الولاية على الذات) والاقتصادية، فأثبت لها الولاية على نفسها ومالها وعملها حين تبلغ سن التكليف وتكون رشيدة فى تصرفاتها.

ولم يجعل لأحد عليها ولاية فى شىء إلا فى موردين: أولهما ـ الأب والجد للأب فى شأن الزواج إذا كانت بكراً، وولايتهما ـ بناء عليها ـ ليست مطلقة ولا

استبدادية ولا استقلالية، بل هى فى حدود النظر لمصلحة البنت وبضميمة ولايتها على نفسها.

وثانيهما - الزوج، فى خصوص ما يتعلق بحقوق الزوجية فى مجال الاستمتاع، وفيما عدا هذين الموردين لا قيد لها، ولا ولاية لأحد عليها.

أهلية المرأة للعمل السياسى:

إنَّ المركز الذى أحل الإسلام فيه المرأة بموازاة الرجل فى كل ما تشترك فيه طباعهما ومؤهلاتهما، يخولها أن تشارك فى العمل السياسى فى حدود احترام التكاليف الشرعية التى تختص بها المرأة فى زيّها، ونمط علاقتها بالرجال الأجانب، وفى مسئولياتها الزوجية والعائلية.

فلا ريب فى أن المرأة المسلمة تتحمل مع الرجل المسلم فى المجتمع المسلم مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والاهتمام بأمور المسلمين.

فلم يجعلها الشارع محايدة إزاء ما يجرى فى المجتمع، وما ورد فى الكتاب والسنة فى هذا الشأن شامل للرجال والنساء وليس مختصاً بالرجال.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة/ ٧١).

ومن ذلك الحديث النبوى المشهور: "من أصبح وأمسى ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم". إن هذه الأدلة - وما بمعناها فى الكتاب والسنة مما لم نذكره - شاملة للمرأة.

وبعد أن ثبت بما سبق بيانه أن المرأة - بحسب أصل الخلقة والتكوين - تتمتع بالأهلية الكاملة، فإن هذه الأدلة تثبت أنها مؤهلة للاهتمام العملى بالشأن العام للمجتمع والأمة، وللتعرف على حاجات المجتمع والأمة، ولمراقبة الحكومة وأعمالها والسياسيين ومواقفهم على ضوء معرفتها بحاجات المجتمع والأمة، ولإبداء رأيها فى ذلك، ناقدة ومؤيدة ومعارضة، وللعمل على الاستجابة للحاجات وحل المشاكل.

كما أن هناك سوابق فى سيرة المسلمين فى هذا الشأن ويثير بعض المانعين

من مشروعية عمل المرأة فى المجال السياسى أو المتحفظين المحتاطين فى هذا الشأن، التساؤل التالى:

أليس لو كانت المرأة مؤهلة شرعاً للعمل السياسى، لَمارسته النساء المسلمات فى الصدر الأول للإسلام فى عصر النبى صلى الله عليه وآله والخلفاء الراشدين؟ وهذا أمر لم يحدث على الإطلاق إلا من أم المؤمنين عائشة التى ندمت على ما فعلت، فلا يعتبر عملها حجة تحتذى.

ولو كان الأمر مشروعاً لشاع وذاع بين المسلمين.نحن نخالف هؤلاء الأعلام فى فهمهم لعلاقة المرأة بالعمل السياسى فى صدر الإسلام.

ولعلهم انطلقوا فى فهمهم لهذه العلاقة من تصور لشكل وأسلوب فى العمل السياسى يشابه أو يقارب الشكل والأسلوب السائدين فى زمانا وما قاربه، فلا يرون لذلك أثراً فى سلوك المرأة فى صدر الإسلام.

كما أنهم لاحظوا أن المرأة المسلمة لم تتصد لتولى الحكم والسلطان على مستوى رئاسة الدولة.

وإذا كان الأمر هكذا، فهو نتيجة غفلة عن المناخ الفقهى الكلامى الذى كان يسيطر على التوجه الفكرى فى قضية رئاسة الدولة، وخطأ فى تشخيص حقل العمل السياسى وطبيعته فى ذلك العهد.

أما وجه الغفلة، فمن جهة أن قضية رئاسة الدولة كانت محكومة على مستوى رؤية عامة المسلمين بقضية أن الأئمة من قريش، والروايات الشيعية التى نصّت على اثنى عشر رجلاً من قريش، وتحديد الخليفة لدى الشيعة بشخص الإمام على بن أبى طالب عليه السلام والأئمة من ولده، ولهذا وذاك لم يكن ثمة مجال - على المستوى الشرعى - لأن تتصدّى المرأة لتولى هذه المهمة.

هذا - فيما نقدر - وجه الغفلة فى فهم هذه المسألة، وأما وجه الخطأ، فمن جهة أن أشكال وأساليب العمل السياسى تختلف باختلاف شكل المجتمع ومؤسساته وطرق التعبير السياسى فيه، وما كان سائداً فى صدر الإسلام هو أن محور العمل السياسى فى عصر النبى صلى الله عليه، كان النبى والنبوة والدعوة وما واجهته من كيد وعدوان، وما خاضه المسلمون من حروب؛ دفاعاً عن كيانهم وعقيدتهم.

ولم تكن المرأة كماً مهملاً، ولم يقتصر دورها على الانفعال والتلقى، بل كان

للمرأة - فى أشخاص كثير من المسلمات - أدوار فاعلة وإيجابية فى تلقى الدعوة والعمل لها وتحمل الأذى فى سبيلها، والهجرة عن الوطن والأهل فراراً بها، والمشاركة فى الحرب فى مجال خدمة المجاهدين - والقتال فى بعض الحالات - والسيرة النبوية حافلة بالشواهد على ذلك.

وقد تلقى النبى صلى الله عليه وآله بيعة النساء فى العقبة وبعد الهجرة. وفيما بعد عصر النبوة كان محور العمل السياسى هو الخلافة والنزاع فيها وحولها.

ولم تكن المرأة فى المجتمع الإسلامى آنذاك مؤهّلة - على المستوى الثقافى العملى - للتصدّى لهذه المهمات وما يتصل بها ويلابسها، كما أن المجتمع - على مستوى الأعراف والتقاليد - لم يكن يستسيغ تصدّى المرأة لمهمة العمل السياسى على مستوى السلطة العليا، ولم يكن مؤهّلاً على مستوى ثقافته الموروثة من العهد الجاهلى، ونظرة هذه الثقافة إلى المرأة لقبول فكرة تولّى المرأة لأى موقع قيادى من مواقع السلطة، وهى ثقافة كانت لا تزال حية فى عقول ونفوس المجتمع.

لقد رأينا فيما تقدّم أن مجالات العمل السياسى متعددة ومتنوعة، وكلها موضوع للجدل على المستوى الفقهى، من حيث أهلية المرأة للعمل فيها.

ففى الفقهاء من ينفى أهلية المرأة شرعاً لكل نشاط فى المجتمع عدا العلاقات الزوجية وشئون الأولاد والأسرة.

وفيهم من ينفى أهلية المرأة شرعاً لانتخاب النواب وأعضاء المجالس البلدية فضلاً عن تولى النيابة والوزارة.

وفيهم من يسلّم بأهليتها للانتخاب، ويمنع من أهليتها للنيابة وغيرها .وفيهم من يسلّم بأهليتها للنيابة وعضوية مجالس الشورى (البرلمان)، وينفى أهليتها لتولى الوزارة والإدارة، وفيهم من يسلم بأهليتها شرعاً لتولى هذه المناصب.

ولكن المشهور بين الفقهاء قديماً وحديثاً - عدا الفرد النادر - هو عدم أهلية المرأة شرعاً لتولى رئاسة الدولة، ولذلك فقد رأينا أن نبحث أولاً عن الحكم الشرعى فى مسألة تولى المرأة لرئاسة الدولة، وعلى ضوء نتيجة البحث فيها نبحث عن أهلية المرأة وعدمها للعمل السياسى فى المجالات الأخرى.

أهلية المرأة لتولى الحكم:

هل يجوز فى الشرع الإسلامى للمرأة ذات الكفاءة العملية والذهنية لأهلية السلوكية والأخلاقية، أن تتولى الحكم فى الدولة، فتكون رئيسة للدولة أو رئيسة للوزراء، فضلاً عن توليها إحدى السلطات الوزارية أو الإدارية، أو لا يجوز لها ذلك؟.

ومن جهة أخرى: هل يجوز للمجتمع/ الشعب أن يولى زمام أموره إلى امرأة فيسند إليها مهمة رئاسة الدولة أو رئاسة وزرائها، فضلاً عن توليها سلطة أقل أهمية من ذلك، كأن تكون وزيرة أو رئيسة إدارية لإحدى الإدارات العامة فى الدولة؟.

والمسألتان متلازمتان على الظاهر، فإذا جاز للمرأة أن تتولى جاز للشعب أن يولّى، وإذا جاز للشعب أن يولّى جاز للمرأة أن تتولى، إذ لا يتصور التفكيك فى المشروعية، بأن يجوز لها أن تتولى ولا يجوز للشعب أن يوليها، أو يجوز للشعب أن يوليها ولا يجوز لها أن تتولى.

إذ فى هذه يكون حكم الجواز والمشروعية لغواً لا أثر له ما دام لا يمكن أن يطبق نتيجة لعدم المشروعية فى الطرف الآخر.

وعلى هذا، فإذا ثبت بالدليل الشرعى جواز تولى المرأة للحكم، ثبت بالملازمة القطعية جواز توليتها . وإذ ثبت جواز توليتها ثبت بالملازمة القطعية جواز توليها .

وسنبحث فى حكم المسألة من الوجهين: فنبحث تارة عمَّا إذا كان يوجد حظر شرعى على المرأة من هذه الجهة، بأن يدل دليل معتبر عند الشارع على تحريم تولى المرأة للحكم وعدم أهليتها شرعاً لتولى هذه المهمة، اعتبار أنها مهمة مشروطة بالذكورة، فلا صلاحية للمرأة تخولها توليها .

وفى هذه الحالة يثبت الملازمة عدم مشروعية توليتها من قبل الأمة، فإذا حصل ذلك وقع باطلاً، ويكون توليها غير شرعى وتوليتها غير مشروعة.

ونبحث تارة أخرى عما إذا كان يوجد حظر شرعى على الأمة من هذه الجهة، بأن يدل دليل معتبر عند الشارع على حرمة تولية المرأة للحكم من قبل الأمة، وعدم أهلية الأمة للقيام بذلك وعدم ولايتها على نفسها من هذه الجهة باعتبار أنها مهمة مشروطة بالذكورة، وفى هذه الحالة يثبت بالملازمة عدم مشروعية تولى المرأة للحكم، فإذا أقدمت الأمة على اختيار امرأة كان اختيارها باطلاً لا أثر له شرعاً، ويكون تولى المرأة المختارة للحكم - على أساسه - غير شرعى.

الموقف الفقهى السائد فى المسألة:

لم يحرر فقهاء الشيعة الإمامية مسألة تولى المرأة للحكم، بل لم يتعرضوا لشرط الذكورة فى الحاكم فى أبحاثهم الفقهية، وكذلك لم يتعرض المتكلمون منهم لهذه المسألة فى أبحاث علم الكلام فيما يتعلق منه بمسائل الإمامة.والباحثون المعاصرون من الإمامية الذين بحثوا مسألة الحكم وتعرّضوا لشروط الحاكم، ذهبوا إلى اشتراط الذكورة فى الإمام/ الوالى ولم يجوّزوا أن تتولى المرأة الحكم ورئاسة الدولة. وقد بنوا موقفهم الفقهى القاضى باشتراط الذكورة على ما تسالم عليه الفقهاء، بل ادُّعى عليه الإجماع، وهو اشتراط الذكورة فى القاضى وعدم مشروعية تولى المرأة للقضاء، وعلى ما اشتهر - بل ادعى عليه الإجماع أيضاً - من اشتراط الذكورة فى المفتى.

وقد اعتبروا الأدلة على اشتراط الذكورة فى القاضى، أدلة على اشتراطها فى رئيس الدولة، بالإضافة إلى نصوص أخرى فى الكتاب والسنة استدلوا بها على هذه الدعوى.

أما علماء المذاهب الأخرى (أهل السنة)، فالظاهر اتفاقهم على اشتراط الذكورة فى رئيس الدولة على الرغم من اختلافهم فى اشتراطها فى القاضى، واختلافهم فى تولى ما دون رئاسة الدولة من المسئوليات.

■ قال ابن حزم الأندلسى فى كتابه "المحلّى": "وجائز أن تلى المرأة الحكم، وهو قول أبى حنيفة، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولّى (الشفّاء) - امرأة من قومه - السوق". ثم شرح هذه المسألة فقال:"فإن قيل: قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة».

قلنا: إنما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه فى (الأمر العام) الذى هو (الخلافة). وبرهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "المرأة راعية على مال زوجها، وهى مسئولة عن رعيتها"، وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة، ولم يأت نص يمنعها أن تلى بعض الأمور".

■ وقال ابن قدامة الحنبلى، بعدما استدل على اشتراط الذكورة فى القاضى وعدم جواز تولى المرأة القضاء: "ولا تصلح للإمامة العظمى، ولا لتولية البلدان، ولهذا لم يول النبى صلى الله عليه وآله ولا أحد من خلفائه ولا من بعدهم امرأة قضاء ولا ولاية بلد فيما بلغنا، ولو جاز ذلك لم يخل منه جميع الزمان غالباً".

وظاهر كلامه (ولا لتولية البلدان) عدم أهلية المرأة لتولى أى سلطة أدنى من رئاسة الدولة أيضاً.

وقال الدكتور الشيخ مصطفى السباعى: "يحتم الإسلام أن تكون رئاسة الدولة العليا للرجل. وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه: "ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة".

وهذا النص يقصر المراد من الولاية على الولاية العامة العليا، لأنه ورد حين أبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن الفرس ولّوا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته، ولأن الولاية بإطلاقها ليست ممنوعة عن المرأة بالإجماع، بدليل اتفاق الفقهاء قاطبة على جواز أن تكون المرأة وصية على الصغار وناقصى الأهلية، وأن تكون وكيلة لأية جماعة من الناس فى تصريف أموالهم وإدارة مزارعهم، وأن تكون شاهدة، والشهادة ولاية كما نص الفقهاء على ذلك؛ ولأن أبا حنيفة يجيز أن تتولى القضاء فى بعض الحالات، والقضاء ولاية.

فنَصٌّ الحديث كما نفهمه صريح فى منع المرأة من رئاسة الدولة العليا، ويلحق بها ما كان بمعناها فى خطورة المسئولية".

وقال الدكتور وهبة الزحلى:"أجمعوا على كون الإمام ذكراً".

وفى موسوعة الفقه على المذاهب الأربعة: "اتفقوا على أن الإمام يشترط فيه أن يكون ذكراً" .وعلى هذا، فيمكن القول: إن الموقف الفقهى السائد هو على اشتراط الذكورة فى رئيس الدولة، فلا أهلية للمرأة شرعاً لتولى هذه المسئولية.

وعلى هذا، فلا يجوز للمرأة أن تسعى إلى تولى هذه المسئولية ولا يجوز للأمة أن تولى المرأة، فلو حصل ذلك كانت ولايتها باطلة وتصرفاتها غير نافذة شرعاً، ويجب عليها التنحى عن الحكم ويجب على الأمة عزلها عنه.

الحكم فى الدولة تارة يكون حكماً مطلقاً يمارس فيه الحاكم/رئيس الدولة سلطة مطلقة، فلا يرجع إلى شىء أو أحد سوى فهمه الخاص للشريعة/ القانون - التى يحكم بموجبها- إذا كان للدولة شريعة أو قانون.

وتارة يكون حكماً مقيّداً بالشورى والمؤسسات، فلا يمارس الحاكم سلطته على الناس وفقاً لفهمه الخاص أو لهواه الخاص، بل يحكم بما تقضى به مؤسسات الشورى التى انتخب الشعب أعضاءها باختيار حرّ وإرادة حرّة، وتمارس هذه المؤسسات سلطتها فى التقنين والمراقبة بإرادة حرّة.

إن مجال بحثنا عن مشروعية تولى المرأة لرئاسة الدولة هو توليها لذلك فى الصيغة الثانية للدولة، وليس الصيغة الأولى. حيث إنه فى الصيغة الأولى لا يكون شرعياً حتى لو تولاّه رجل إلا فى حالة واحدة هى كون هذا الحاكم نبيّاً أو إماماً معصوماً وفيما عدا هذه الحالة فلا شرعية لأى حاكم على الإطلاق، بل المحكّم فى هذه الحالة هو الأصل الأولى الآتى بحثه فى ولاية الإنسان على الإنسان، وهو عدم ولاية أحد على أحد، وعدم شرعية أية ولاية حتى فى حالة اختيار المولّى عليه.

وهذا أصل لا ينبغى أن يكون موضع شبهة أو خلاف عند أى فقيه؛ لأنه من ضروريات شريعة الإسلام فى الفقه السياسى والاجتماعى.

الجدل الدينى حول المشاركة السياسية للمرأة

لم ينقطع الحديث عن قضايا المرأة فى الفكر الإسلامى خلال القرن العشرين، فقد نالت اهتماماً واسعاً يفوق من الناحية الكمية قضايا أخرى لا تقل أهمية وخطورة.

ويؤكد ذلك قوة الدوافع التى جعلت قضايا المرأة تحتل هذه المكانة البارزة فى كتابات الإسلاميين، ولا يكاد يوجد كاتب أو مفكر أو فقيه أو مصلح إلا وأدلى بدلوه فى هذا الشأن أو قدم رأياً أو فكرة حوله.

ولعل أبرز ما يفسر هذا الاهتمام الكبير بقضايا المرأة فى الأدبيات الإسلامية، هو التحول الذى حدث خلال القرن العشرين، وما أثاره من معارك فكرية ساخنة شكلت واحدة من أشد أنواع الاصطدام بين المنظومات الفكرية فى العالم العربى والإسلامى، وربما يعود ذلك إلى ارتباطها الوثيق بالحياة الاجتماعية العامة والخاصة، بحكم صلاتها الوثيقة بالجميع، رجالاً ونساء، من جهات عديدة وتداخلها بعلاقات متشابكة نسبية وسببية مع قضايا أخرى حيوية سياسية واقتصادية وثقافية، وكان هذا الارتباط يفرض على الجميع، أن يواجهوا بأشكال مختلفة ما تطرحه قضايا المرأة من تساؤلات أو إشكاليات أو هواجس أو وجهات نظر، وجاء أغلب الكتابات فى مقدمة القرن الماضى لتلج موضوع تحديث وتجديد وضع المرأة عبر بوابة الاجتهاد الفقهى وضرورته.

فقد كان من نتائج الاصطدام بالغرب فى الحقبة الاستعمارية أن وجدت دول العالم الإسلامى التى خضع أغلبها للهيمنة العثمانية أن فروقاً شاسعة تفصلها

عن الغرب المحتل، من بينها وضع المرأة فى المجتمع، فقد شهدت أوضاع المرأة فى المجتمعات المسلمة تدهوراً بدأ مع تحول الخلافة من شورى إلى ملك عضوض، بعد أن كانت المرأة تعامل كفرد كامل الأهلية فى إبرام العقود والبيوع والشراء وتشترك فى البيعة السياسية، ونصت الآية الثانية عشرة من سورة (الممتحنة) على أن البيعة للرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت للنساء، حتى قبل أن يثبت ذلك الحق للرجال.

غير أن هذا الدور اختفى لأسباب سياسية واجتماعية غُلِّفت لاحقاً بتفسيرات دينية (فقهية) للأصول من قرآن وسنة، وبعدد من الفتاوى الدينية التى اتجهت لتعضيد مركز الرجل فى مقابل تهميش دور المرأة، وتم تحجيم دور المرأة فى الأدوار التى اصطلحت النسويات المحدثات على تسميتها "تقليدية أو كلاسيكية" ؛ أى أدوارها داخل المنزل كربة أسرة.

وكذا انسحبت تلك التأويلات الفقهية / الاجتماعية لتطال مكانة المرأة فى كل الميادين داخل الأسرة وخارجها، رغم حادثة مبايعة النساء للنبى (صلى الله عليه وسلم)، والتى تعترف بالدور العام للمرأة فى شقِّه السياسى، وكانت كذلك اعترافا بتمام الأهلية والمواطنة للمرأة المسلمة، وإن ظلَّ دور المرأة ضعيفاً سياسياً طيلة التاريخ الإسلامى.

وظهرت دعوات "تحرير المرأة" من الوضع الذى ساد منذ الحكم الأموى مع بواكير القرن العشرين، وهدفت تلك الدعوة إلى تحقيق قدر من العدالة داخل المجتمع بحيث تنال المرأة ما يطمح إليه أى إنسان، بداية من تحقيقه لذاته وانتهاء بالحصول على مكافآت عادية (مادية أو معنوية) لما يقدم من عمل.

ثم تطور ما تطالب به هذه الحركة للمناداة بأن تحصل على حقوقها كاملة: سياسية كانت (حق المرأة فى الانتخابات والمشاركة فى السلطة)، أم اجتماعية (حق المرأة فى الطلاق وفى حضانة الأطفال)، أم اقتصادية (مساواة المرأة فى الأجور مع الرجل).

استعانت حركة تحرير المرأة فى البلدان المسلمة بكثير من المفاهيم الإنسانية المستقرة الخاصة بأدوار المرأة فى المجتمع، وأهمها دورها كأم، وتحرك برنامج حركة تحرير المرأة داخل إطار من المفاهيم الإنسانية المشتركة، مثل مفهوم الأسرة باعتبارها أهم المؤسسات التى يحتمى بها الإنسان ويحقق من خلالها جوهره الإنسانى، وداخل الأسرة تم التعامل مع مفهوم المرأة باعتباره العمود الفقرى لهذه

المؤسسة، وأن تحسين وضع المرأة ينعكس تلقائيا على الأسرة ومن ثمَّ على المجتمع، وكان هذا هو الإطار الحضارى والمعرفى لحركة تحرير المرأة فى البلدان المسلمة، وأيضاً الإطار الأساسى لحركات التحرر فى الغرب حتى منتصف الستينيات.

اصطدمت حركة تحرير المرأة فى بدايات القرن العشرين بالتأويلات والتفسيرات الفقهية عن المرأة فى القرآن والحديث، فمثّل ذلك عائقاً أمام محاولات رد الاعتبار لدور المرأة المسلمة فى المشاركة فى حركة المجتمع ونهضته، وتمحورت المشكلة التى واجهت ناشطى حركة تحرير المرأة فى قضايا فقهية محددة هى:

القوامة والميراث والشهادة، ومن هذه القضايا ثار النقاش حول قضية الولاية العامة للمرأة، أى أهليتها لتولى الوظائف فى المجتمع، ومسألة المشاركة السياسية للمرأة، وبحكم التعريف هى جزء من قضية الولاية العامة للمرأة.

وقد اختلفت الآراء الفقهية أوائل القرن العشرين بشأن أهلية المرأة للولايات العامة، فذهب فريق إلى عدم أهليتها لتولى الولايات العامة كافة، وأجاز فريق ثان توليها الولايات العامة ما عدا الخلافة أى الولاية العظمى، وقصر فريق ثالث أهليتها على ولاية القضاء فيما تشهد فيه.

مع بواكير عصر النهضة العربى الذى يؤرخ له بمنتصف القرن التاسع عشر، حدث ربط بين قضية مشاركة المرأة فى المجتمعات المسلمة فى الحياة العامة، ومنها الحياة السياسية، وبين الدين، وعلى وجه الخصوص الفقه، الذى رآه العديدون بالمعنى السابق مانعاً يحول دون تمكين المرأة اجتماعياً وسياسياً.

وعلى الرغم من وجود إسهامات فقهية عضدت حق المرأة فى الولاية العامة، كرأى ابن جرير وما يمثله من مدرسة داخل الفقه السنى، فإن الغلبة كانت لآراء المنع، إذ وجدت مكاناً لها فى المذاهب السنية الرئيسية وامتدادها، المالكى والشافعى والحنبلى، لاسيما حكم تولى الولاية.

مشاركة المرأة السياسية من وجهة النظر السنية:

أغلق باب الاجتهاد لدى فقهاء السنة فى القرن الرابع الهجرى، وظل الوضع كذلك حتى شهد العالم الإسلامى مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادى دعوة جمال الدين الأفغانى للاجتهاد كسبيل للإصلاح، وقامت دعوته على تصحيح البنية الفكرية، واعتبار الدين يشكل البنية الثقافية والحضارية للأمة، كما دعا إلى تنقية الدين من البدع والخرافات وفتح باب الاجتهاد والتحرر من التقليد.

وتلت دعوة الأفغانى دعوات متواصلة لإعادة فتح هذا الباب بصورة واسعة، بحيث لا يقتصر على الاجتهادات الجزئية المتعلقة بالمسائل المستحدثة، بل يصل حتى الاجتهاد فى الأصول، وخلال الفترة من إغلاق باب الاجتهاد وحتى دعوات التجديد والإصلاح انشغل الفقهاء منذ القرن الرابع فى مناقشة ما يمكن أن يطرأ على الفتوى المعروفة مسبقا؛ كى تصبح ملائمة مكاناً وزماناً.

وفيما يخص قضية المساواة بين الرجال والنساء، وهى من القضايا التى احتلت موقعاً بارزا عند فقهاء ومفكرى النهضة، فقد اختلفت الرؤى بشكل كبير، واستخدمت المنطلقات الاجتماعية والدينية معا لتشكل الحجة للدفاع عن المساواة لدى البعض، والحجة ضد المساواة لدى الآخرين. وبشكل عام يمكن القول إن فريقاً كبيراً من المفكرين هاجم فكرة المساواة بضراوة، وأقام معظمهم حجته على أساس الفروق الجسدية التى رأوا أن حكمة الله التى وضعت تلك الفروق اقتضت أن تختلف المرأة عن الرجل، مؤكدين ذلك بالفروق فى التكاليف الشرعية.

وفهم كثيرون هذا الاختلاف على وجهه السلبى، بمعنى أن المرأة أقل من الرجل وتابعة له، فى حين أن قلة من المفكرين فهمت الاختلاف بطريقة أكثر اعتدالاً.

ويمكن حصر جملة الآراء السنية المرتبطة بتحريم ولاية المرأة (تولى القضاء أو الترشيح والانتخاب) فى تفسيرات ذاعت لآيات قرآنية وللسنة النبوية على النحو التالى:

أولاً: تفسير الآية الكريمة ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ (النساء ٣٤)، فرأى فريق أنها دليل على أن القوامة محصورة فى الرجال دون النساء، لما للرجال من فضل التدبير والرأى وزيادة القوة فى النفس والطبع.

وما دام الرجل قواماً على المرأة فلا يجوز أن تتولى ولاية عامة تجعلها صاحبة سلطة وقوامة عليه، أو حتى مشاركة له فى القوامة، بينما ذهب فريق آخر إلى أن ذكر القوامة فى القرآن لم يأت إلا فى سياق الحديث عن الحياة الزوجية التى يلزم فى إدارتها أن تنتهى القرارات لشخص واحد.

ثانياً: تستند آراء المنع أيضاً إلى السنة الفعلية للنبى (صلى الله عليه وسلم)، الذى لم يول فيها أى امرأة منصب ولاية عامة.

ثالثاً: السنة القولية للنبى (صلى الله عليه وسلم) التى يعتد فيها بحديثه الشهير "لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة".

ويرد الحديث فى نصِّه الكامل على النحو التالى: روى البخارى بإسناده إلى أبى بكر (رضى الله عنه) قال: لقد نفعنى الله بكلمة سمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيام الجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم. قال: لما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) رواه البخارى، ويكون إخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) إخباراً عامًّا عن الفرس وغيرهم أن القوم الذين يولون المرأة الولاية لا يفلحون لأن (قوماً) لفظ عام، و(امرأة) لفظ عام.. فيدخل فيه كل قوم ولوا امرأة عليهم.

وقد ذاع الحديث واتخذ مصدرا بنيت عليه أحكام وقوانين فى دول إسلامية رغم أن ثمة آراء ترى الحديث خاصًّا بقوم فارس، ويدخل فى إطار الإجبار والبشارة، فضلاً عن أنه حديث آحاد أى ظنىّ الدلالة، وبذا لا يؤخذ به فى الأمور الدستورية، ولا يؤخذ منه بمفرده حكم، وأن نصوص القرآن والسنة قد جاءت على خلافه، وأنه مقيد بزمان الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى كان الحكم فيه للرجال استبداديًّا، وأما الآن فلا، وأنه قال بخلافه ابن حزم.

وأورد الكثير من الفقهاء والباحثين أن هناك إجماعاً على عدم تولى المرأة الولاية الكبرى، وإجماعاً على عدم ولايتها القضاء فيما لا تجوز فيه شهادتها، رغم أن ابن جرير الطبرى قد أجاز للمرأة أن تكون حاكماً على الإطلاق فى كل شىء كما أشير، وهو ما أورده عنه الكثيرون كابن رشد وابن قدامة وابن حزم.

وإذا كان بعض الباحثين والعلماء قد أنكروا نسبة هذا القول إلى ابن جرير، فإن مجرد الخلاف بشأنه يجعل الإجماع ظنياً، كما أن ما يقال عن إجماع الأمة يضعفه ما أجازه أبو حنيفة بأن تقضى المرأة فيما تشهد فيه.

وتم تشخيص مشكلة الفقه السنى عموما، والتى انعكست على ما أنتجه حول المرأة وولايتها، من أنه نشأ وتطور كفقه "بيانى" قائم على بيان النص القرآنى وشرحه وتقنيته، حيث يرى كبار فقهاء أهل السنة أن العلم هو المرتبط بالنص شرحاً وتفسيراً بحيث تصور هذا الفقه أن "الجديد فى العلم" هو ليس جديداً، فهو فى مدار النص تأويلاً وشرحا، يقول الإمام ابن حنبل: (إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق)، وكذا ما يقوله الشافعى: (العلم طبقات شتى، ولا يصار على

شىء غير الكتاب والسنة، وهما موجودان، وإنما يؤخذ العلم من أعلى)، وبالتالى فإن هذا المسلك يعتمد فى الأساس على علم التدوين، فكان من المنطقى إغلاق باب الاجتهاد على نحو ما تقدم بعد استيفاء شرح النص تقريبا من قبل المدارس الفقهية المختلفة فى القرن الرابع الهجرى.

كما يعزو كثير من المختصين مشكلة الفقه السنى مع المرأة إلى توقف الاجتهاد، وإلى أن حركة النهضة العربية لم تحاول الاجتهاد سوى فى جزئيات بسيطة، وسبب إغلاق باب الاجتهاد فى القرن الرابع الهجرى أنه تزاحم الفقهاء وتجادلوا فيما بينهم حول أمور كثيرة، حتى قيل إن الشىء فى أحد شوارع المدينة يحرّمه فقيه ويحلّه فقيه فى شارع مجاور، وكان الحل أن تتبع المدينة أو الولاية رأى فقيه من المتقدمين فى المسألة، فبدأ ما عرف لاحقاً بـ"التقليد".

ويرى عدد من الباحثين أن التقليد وإن بدأ فى القرن الرابع الهجرى، فإنه لم يستشر ويتعاظم إلا لاحقاً، حتى وصل الأمر إلى القول بعدم جواز إحداث قول مخالف لما قال به أصحاب المذاهب الأربعة، وفرض الولاة على المسلمين واحداً من هؤلاء الأئمة لتتم البيوع والعقود والفتاوى على أساس ما خلفه من فقه، وما نقل عنه، فظهرت مناطق فى العالم الإسلامى عرفت بأنها شافعية، وأخرى بأنها حنبلية.. وهكذا.

وما عرف بإغلاق باب الاجتهاد لم يحدث دفعة واحدة، فحتى أواخر القرن الرابع الهجرى كان من العلماء من يجتهد فى الفروع الفقهية، وتحديداً يجتهد فى المسائل الحياتية العارضة أمامه، دون أن تمتد محاولات اجتهاده تلك إلى مناقشة منهج استنباط الأحكام، وهؤلاء هم المعروفون باسم المجتهدين المقيدين، ثم بعد ذلك فشا التقليد فاختفى حتى المجتهدون المقيدون.

لهذا فإن المرحلة التى شهدت تصاعد الاهتمام بوضعية المرأة فى المجتمعات المسلمة، والتى عرفت بفترة النهضة اتسمت بإعادة إنتاج فقه وتأويلات السلف كنتاج لذلك.

وبين صفوف التيار الإسلامى يوجد التيار المحافظ المستند إلى تراث عريض من الفقه التقليدى، الذى يمتلك تعريفاته الخاصة بالمرأة وتحديداته لأدوارها الاجتماعية ولطبيعتها الإنسانية مقارنة بالرجل، وهى تعريفات تؤكد دونية المرأة إنسانيًا واجتماعيًا، ويقصد بالتيار المحافظ فى عصر النهضة بالأساس فكر الشيخ محمد رشيد رضا حول مكانة المرأة ومشاركتها فى المجتمع.

ويمكن القول إن هذه الأفكار النكوصية لصاحب المنار قد شكلت إحدى الركائز الفكرية لدعوة (حسن البنا) التى ظهرت فى سياقات تاريخية مستجدة تميزت، على الصعيد الدولى، بانفجار أزمة اقتصادية خطيرة وتنامى النزعات الفاشية والنازية فى أوروبا، وتزايد استفزاز مشاعر المسلمين فى أكثر من بلد، وعلى الصعيد المحلى باشتداد حدة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية وتفاقم الأزمة السياسية.

وقد اندفع (حسن البنا) على طريق بلورة أيديولوجية إسلامية، قامت على أساس الغلو فى الدين ورفض الاعتراف بشرعية الاختلاف، والنظرة الأحادية الجانب إلى الحضارة الغربية والدعوة إلى مقاطعة كل المؤسسات الحديثة التى اقتبست عن أوروبا.

قد اتسع هذا التيار المحافظ ليحاصر الآراء النهضوية الأخرى، بل إن نكوصاً شهدته تلك الفترة داخل المدرسة الإصلاحية الكبرى، مدرسة محمد عبده، نحو المزيد من التشدد لاسيما فيما يتعلق بالمرأة. بتعبير آخر، فإن التكوين المعرفى لكثير من مفكرى المرحلة داخل إطار "العلوم الشرعية" بشكلها الذى آلت إليه فى المراحل الأخيرة وقبل صحوة النهضة، كان له تأثيره المباشر فى طبيعة العودة على الأصول الإسلامية رجوعاً جزئيًا لإكساب شرعية للأفكار القائمة بالفعل، وانضم إلى المحافظين كذلك تيار من المتعلمين تعليما مدنيًا من الذين مثّلوا تيار "الحداثة" فى جوانب فنية أو علمية مختلفة (الأدب، الشعر، الاقتصاد)، لكنهم احتفظوا بتوجههم الاجتماعى المحافظ المرتكز بدرجة أكبر على تراث الأعراف والتقاليد.

وقد استعان هؤلاء فى جدلهم بسلطة التفسيرات الدينية المحافظة إلى جانب الحديث عن الفضائل والأخلاق الاجتماعية وأدلة تاريخية منتقاة، لتأكيد رأيهم فى ضرورة تحجيم المرأة وإبقاء سيطرة الرجل الكاملة عليها، ومن أبرز هؤلاء محمد طلعت حرب، ومحمد فريد وجدى، وعباس محمود العقاد.

وجهة النظر الشيعية:

يؤكد (العلامة الطباطبائى) فى كتابه «الميزان» أن الإسلام لم يهمل أمر حرمان المرأة من فضيلة الجهاد فى سبيل الله دون أن يكون قد تداركها، وجبر كسرها بما يعادلها عنده بمزايا وفضائل فيها مفاخر حقيقية، كما أنه جعل حسن التبعل مثلا جهاداً للمرأة.

ويعنى ذلك أن الدين وإن حرم المرأة الجهاد فى ساحة القتال لطبيعتها، فقد عوضها بجهاد آخر داخل المنزل لا يقل فى ثوابه وقيمته عما يؤديه الرجل فى القتال، أى أن تحديد الوظائف والأدوار فى المجتمع قائم على اعتبار الفطرة والطبيعة الإنسانية المختلفة للمرأة عن الرجل.

ويعود (الطباطبائى) ليؤكد التساوى كأساس لنظرة الشرع للمرأة والرجل: "وفق هذا الأصل نظر الشرع الإسلامي إلى المرأة نظرته إلى الرجل، فهى كالرجل على السواء فى كونها جزءاً كاملاً من المجتمع الإنسانى، تتساوى وإياه فى إيجاد البنية الاجتماعية. على هذا الأساس، ساوت أصول التشريع بين الرجل والمرأة ومنحتهما حقًا متعادلاً فى حرية الإرادة والعمل".

ويرى (الطباطبائى) أنه بالنسبة للأحكام المشتركة والمختصة فهناك ضرورة لمشاركة المرأة الرجل فى جميع الأحكام العبادية والحقوق الاجتماعية، فلها أن تستقل فيما يستقل به الرجل من غير فرق فى إرث ولا كسب ولا معاملة، ولا تعليم ولا تعلم ولا اقتناء حق ولا دفاع عن حق، وغير ذلك، إلا فى موارد تقتضى طباعها ذلك.

ويتفق هذا التوجه فى إطار الفقه الشيعى الإمامى مع روافد فى الفقه الشيعى الزيدى فى منع المرأة من تولى الولاية العظمى، أى رئاسة الدولة والقضاء، فالزيدية يضعون أربعة عشر شرطاً للإمامة، يأتى شرط الذكورة فيها فى المرتبة الثالثة بعد البلوغ والعقل.

ب- تولى المرأة الولاية العظمى عند الشيعة الإمامية:

للفقه الإثنى عشرى وجهة نظر، لها منطق فى إطار التشيع، فى منع ولاية المرأة لأمر الدولة، أى الولاية العظمى؛ لأن ذلك المنصب فى التشيع الإثنى عشرى حكر على الأئمة المعصومين فى الأساس، المتسلسلين من بيت النبوة، وآخرهم هو المهدى المنتظر الإمام الثانى عشر الغائب، وطائفته فى انتظار عودته.

يرى (مهدى شمس الدين) أن الحكم فى الدولة يكون تارة حكماً مطلقاً يمارس فيه الحاكم/ رئيس الدولة سلطة مطلقة، فلا يرجع على شىء أو أحد سوى فهمه الخاص للشريعة/ القانون، التى يحكم بموجبها، إذا كان للدولة شريعة أو قانون.

وتارة يكون حكماً مقيداً بالشورى والمؤسسات، فلا يمارس الحاكم سلطته على الناس وفقاً لفهمه الخاص أو لهواه الخاص، بل يحكم بما تقضى به مؤسسات الشورى التى انتخب الشعب أعضاءها باختيار حر وإرادة حرة، وتمارس هذه المؤسسات سلطتها فى التقنين والمراقبة بإرادة حرة، وتكون هناك مشروعية لتولى المرأة رئاسة الدولة فى الصيغة الثانية من أنواع الحكم، واعتمادا على أصالة البراءة، لم يقم دليل قطعى الثبوت أو الدلالة على منع المرأة وبالتالى لا يقيد حقها فى الولاية العامة وحتى العظمى.

ولا تصح ولاية المرأة فى الصيغة الأولى للدولة التى يمارس الحاكم فيها سلطات دون الرجوع لأحد، حيث إنه فى الصيغة الأولى لا يكون شرعياً حتى لو تولاه رجل إلا فى حالة واحدة هى كون هذا الحاكم نبياً أو إماماً معصوماً.

وبتطور نظرية ولاية الفقيه ليحل الفقيه محل الإمام الغائب فى تسيير أمور الأفراد لحين عودة الإمام، أنيط بالفقيه إلى جانب مهامه الدنيوية أمور ذات طابع دينى، من قبيل إقامة الصلاة فتعذر على النساء تولى هذا المنصب حتى الآن.

ج ـ كيف ردَّ الشيعة على موقف السنة من ولاية المرأة؟

لم يكن من الممكن خلال التاريخ الشيعى منع النساء من الاشتراك فى أربعينيات الحسين وذكرى عاشوراء، فلم تشهد كتب الفقه الجعفرى ما شهدته كتب الفقه السنى من تحجيم لدور المرأة ومكانتها فى المنزل وتحريم اشتراكها فى المنتديات العامة، لاسيما أن السيرة التاريخية للسيدة فاطمة الزهراء والسيدة زينب ابنتها كسيدتين مسلمتين خرجتا على الحكام لدرء الظلم ماثلتان فى الذهنية الشيعية، ويجرى استحضارها دورياً فى مجالس العزاء.

فأثر هذا التاريخ على مسار اهتمام الفقه بقضايا المرأة، ولهذا لم تثر مسألة مشاركة المرأة فى العمل العام بين فقهاء الشيعة بمثل ما كان الأمر بين فقهاء السنة، وبالتالى ليس هناك ما يمكن أن يوصف بأنه ردود شيعية على الحجج السنية المرتبطة بمنع المرأة من الولاية العامة، رغم تصدى عدد من فقهاء المذهب الإثنى عشرى لبعض تفسيرات الآيات التى قادت إلى منع المرأة من الولاية ؛ مثل رد (حسين على منتظرى) الفقيه البارز فى الثورة الإيرانية على القائلين إن القوامة تتجاوز قوامة الرجل على زوجته، إلى الحكومة والقضاء،

وقال: "إن شأن النزول وكذا السياق شاهدان على كون المراد قيمومة الرجال على أزواجهم، إذ لا يمكن الالتزام بأن كل رجل بمقتضى عقله الذاتى، وبمقتضى إنفاقه على خصوص زوجته له قيمومة على جميع النساء الأجنبيات، ولو سلم الشك أيضاً فإن الاحتمال يكفى فى عدم صحة الاستدلال"وقد ذهب المنتظرى، وثبت ذلك أيضا فى دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، إلى أن المرأة والرجل يتمتعان بحماية القانون بصورة متساوية، كما يتمتعان بجميع الحقوق الإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع مراعاة الموازين الإسلامية.

وعن النقطة نفسها تحدث العلامة (محمد حسين فضل الله) عندما سئل عن قوامة الرجل على المرأة، فذكر أنه لا يعتقد أن القوامة مانع لمشاركة المرأة فى جميع مناحى الحياة؛ لأنه عندما ندرس نشاط المرأة فى الدعوة الإسلامية، نجد أن هناك نساء قمن بالمبادرة فى دعوة الآخرين إلى الإسلام، وكانت هناك مبادرة للنساء فى الهجرة إلى المدينة، مما يدل على أن المرأة كانت ممسكة بزمام المبادرة.

ثم يضرب مثلاً بالسيدة فاطمة الزهراء عندما وقفت فى مسجد وعندما تحركت فى جموع المهاجرين والأنصار، وكذلك حديثها مع رجال المهاجرين والأنصار الذين كانوا يزورونها وعندما خطبت فى مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل الخلافة. ويعقّب فضل الله بأنه لم يخرج وقتها من يقول: كيف للمرأة أن تتدخل فى أمور الخلافة أو أن تخطب فى الرجال؟ ويخلص فضل الله إلى أن إثارة القضية الآن عن مشاركة المرأة يعنى أن العرف الاجتماعى يخالف العرف التاريخى.

وعن آية الشهادة التى استشهد عدد من الفقهاء بها لتأكيد تصورهم بشأن نقصان المرأة الفطرى فيما يخص القيام بالمهام العامة، وللقول إنها أدنى من الرجل فى تقدير المسائل العامة، على اعتبار أن شهادة رجل تعادل شهادة امرأتين، فقد ذكرت أمهات كتب الشيعة أن الإمام على بن أبى طالب أباح شهادة امرأة واحدة فى الحدود على خلاف السنة، فقد ذكر فى كتاب وسائل الشيعة "عن محمد بن يعقوب، عن على بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبى عمير، عن جميل بن دراج، ومحمد بن حمران، عن أبى عبد الله قال: قلنا: أتجوز شهادة النساء فى الحدود؟ فقال: فى القتل وحده إن علياً كان يقول: لا يبطل دم امرئ مسلم".

أى أنه فى سبيل القصاص للدم المسلم أباح شهادة امرأة لتختلف هذه الإباحة مع المذاهب السنية الأربعة التى حرمت شهادة المرأة واحدة فى الحدود والقصاص، فقد ذهب الجمهور إلى أن شهادتها لا تقبل، بينما يعترف فقهاء السنة بشهادتها فيما هو من شأنها واختصاصها، كشهادتها فى الرضاع والبكارة والثيوبة والحيض والولادة وغيرها.

كما قام (محمد حسين فضل الله) بالرد على الآراء المرتبطة بنقصان أهلية المرأة كمشتق من نقصان شهادتها وانتصافها أمام شهادة الرجل: "والملحوظ، فى الآية، أن المرأة هى التى تذكرّ المرأة، وهو ليس نقصاناً، فإنه تعبير عن حالة إنسانية سلبية، ولو كانت المسألة تختزن النقص فكيف يكمل الناقص، إنما هو احتياط فى العدالة، كما هو حال احتياط العدالة حين لا تقبل البينة إلا بشهادة شاهدين، دون أن يعنى ذلك نقصاً فى إنسانية أحد الشاهدين، إنها مسألة تتصل باحتياط العدالة فى هذا المجال".

وتصدى البعض لتفسيرات السنة النبوية التى عضدت منع المرأة من الولاية العامة، إذ يناقش الشيخ (محمد مهدى شمس الدين) ما ورد من أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يول امرأة قائلاً: "إن من الخطأ اعتبار أن عدم تولى المرأة مناصب فى وقت النبى (صلى الله عليه وسلم) ليس بحجة؛ لأن أشكال وأساليب العمل السياسى تختلف باختلاف شكل المجتمع ومؤسساته وطرق التعبير السياسى فيه.

وما كان سائدا فى صدر الإسلام هو أن محور العمل السياسى فى عصر النبى (صلى الله عليه وسلم)، كان النبى والنبوة والدعوة وما واجهه من كيد وعدوان، وما خاضه المسلمون من حروب دفاعاً عن كيانهم وعقيدتهم، فضلا عن أنه لم تكن المرأة فى هذا المضمار كائناً وكماً مهملاً، ولم يقتصر دورها على الانفعال والتلقى، بل كان للمرأة، فى أشخاص كثير من المسلمات، أدوار فاعلة وإيجابية فى تلقى الدعوة والعمل لها وتحمل الأذى فى سبيلها، والهجرة عن الوطن والأهل فراراً بها، والمشاركة فى الحرب فى مجال خدمة المجاهدين، والقتال فى بعض الحالات، والسيرة النبوية حافلة بالشواهد على ذلك، ولم تكن المرأة فى المجتمع الإسلامى - آنذاك - مؤهلة، على المستوى الثقافى العملى، للتصدى لمهمات القيادة وما يتصل بها ويلابسها، كما أن المجتمع، على مستوى الأعراف والتقاليد، لم يكن يسيغ تصدى المرأة لمهمة العمل السياسى على

مستوى السلطة العليا، ولم يكن مؤهلا على مستوى ثقافته الموروثة من العهد الجاهلى، ونظرة هذه الثقافة إلى المرأة، لقبول فكرة تولى المرأة لأى موقع قيادى من مواقع السلطة، وهى ثقافة كانت ولا تزال حية فى عقول ونفوس المجتمع.

أما عن السنة القولية، فالحديث المذكور "لا أفلح قوم ولوا أمورهم امرأة"، رد عليه العلامة (محمد حسين فضل الله) أيضاً بقوله: "إن الحديث غير موثق سنده"، كما علق: "إن أكثر الفقهاء يرسلونه إرسال المسلمات، ولكن هذا الحديث إذا أردنا أن نناقش سنده ليس تاماً". ويؤكد فضل الله: "أن الأساس فى تكليف البشر من الله تعالى هو القيام بتحمل العدل كرسالة فى كل تطلعات البشر ومواقفهم وهو ليس وظيفة الرجل فقط بل الرجل والمرأة".

د- أحقية المرأة فى الولاية العامة «تأصيل شيعى»..

نموذج (محمد مهدى شمس الدين)

وقع فقهاء الشيعة العرب فى قلب الجدل السنى عن مشاركة المرأة فى الحياة السياسية، لذلك تصدى عدد منهم لموضوع ولايتها مناقشاً الذكورة التى طرحها الفقه السنى كشرط للولاية العامة، تأثراً بصيرورة الظاهرة فى المجتمع العربى.

لهذا تتوافر كتابات لعدد من فقهاء الشيعة العرب المعاصرين حول الولاية العامة وموقع المرأة فى المجتمع، فقد أصل العلامة الراحل الشيخ (محمد مهدى شمس الدين) لحق المرأة فى الولاية العامة والعمل السياسى فى كتابه حول ولاية المرأة السياسية فى مؤلفه عن فقه المرأة وكذا فى العديد من دراساته المنشورة.

أشار (شمس الدين) إلى أنه فى غياب الإمام، وهو لب عقيدة الشيعة الإمامية، ورأس الخلاف السنى ـ الشيعى، فكل المناصب ذات صفة مؤسسية فى الدولة الحديثة، وتكون الوظيفة العامة بما فيها الولاية العظمى "وظيفة" تحددها قواعد، ويستطيع من توفرت فيه شروطها الموضوعية القيام بها، فهو يرى: "أن العمل السياسى هو العمل بالاستقلال والانفراد أو مع وفى ضمن أشخاص أو هيئات وتجمعات، فى مجال الحكم وتكوينه بتشكيل السلطات (تشريعية وتنفيذية وإدارية) وتولى موقع من مواقع الحكم والسلطة فى رئاسة الدولة أو مجالس الشورى (النيابية) أو الحكومة أو الإدارة، ووضع، أو المشاركة فى وضع، السياسات العامة والخاصة للدولة فى الداخل والخارج، ومراقبة

سياسات وقرارات وأعمال السلطات، ونقدها أو تأييدها، وتكوين الجمعيات السياسية والانخراط فيها".

من خلال عملية استنباط منطقى يرى (شمس الدين) أن المرأة فى النظام الإسلامى (نظام المعرفة والحقوق والقيم) تتبوأ الموقع نفسه الذى يتبوأه الرجل فى القيمة الإنسانية والمركز الحقوقى، ويدلل على ذلك بآيات القرآن الكريم، وكذلك أحاديث من السنة الشريفة المتواترة بالمعنى ذاته، فمما ورد فى القرآن فى هذا الشأن يستشهد (شمس الدين) بقوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾(النساء ١)، فوحدة النفس تعلن ابتداء عن المساواة فى البشرية الإنسانية والطابع البشرى بين الرجال والنساء، ولا يكون هناك أى مجال للحديث عن تفوق جنس على آخر.

كما يرى أن الإسلام أكد أهلية المرأة الكاملة للحياة الروحية والتسامى فيها إلى أعلى المراتب، فأهليتها للتقرب إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة كأهلية الرجل تماماً، ويقول إنه قد ورد التصريح بهذه الحقيقة فى القرآن الكريم فى عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾(الأحزاب ٣٥) فالآية تصرح هى الأخرى بالتساوى والندية بين النوعين.

وبالتالى يخرج (شمس الدين) بأنه: قد ترتب على ذلك الوضع القائم على احترام المرأة والاعتراف بالشخصية الكاملة لها وضع حقوقى أثبته الشارع المقدس للمرأة فى مجال الأهلية الشخصية (فى الولاية على الذات) والاقتصادية، فأثبت لها الولاية على مالها وعملها حين تبلغ سن التكليف وتكون رشيدة فى تصرفاتها وفى حكمها على الأشياء، ولم يجعل لأحد عليها ولاية فى شىء إلا فى موردين:

أولهما: الأب والجد للأب فى شأن الزواج إذا كانت بكراً، وولايتهما ليست مطلقة ولا استبدادية ولا استقلالية، بل هى فى حدود النظر لمصلحة البنت.

ثانيهما: الزوج، فى خصوص ما يتعلق بحقوق الزوجية فى مجال الاستمتاع، وفيما عدا هذين الموردين لا قيد لها، ولا ولاية لأحد عليها.

وبالتالى جعل الإسلام المرأة بموازاة الرجل فى كل ما تشترك فيه طباعهما ومؤهلاتهما، ويدخل العمل السياسى فى هذا المضمار، فبعد ثبوت عدم وجود جنس متفوق على الآخر، وأن القاعدة هى المساواة، فللمرأة أن تشارك فى الوظيفة العامة وتكون أحكام ولايتها كأحكام ولاية الرجل، شريطة أن تشارك فى العمل العام ومنه السياسى فى حدود احترام التكاليف الشرعية التى تختص بها المرأة فى زيها، ونمط علاقتها بالرجال الأجانب، وفى مسئولياتها الزوجية والعائلية، طالما أنه ليس هناك دليل قطعى الورود أو الدلالة فى منعها من الولاية من الكتاب والسنة، بل جاءت آيات القرآن على نحو ما تقدم تؤكد التساوى بين الرجال والنساء وكذلك مواقف عدة من السنة النبوية.

ويرى (شمس الدين) أن المرأة المسلمة تتحمل مع الرجل المسلم فى المجتمع المسلم مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومسئولية الاهتمام بأمور المسلمين على حد تعبيره، فهو يرى أن المرأة فى المجتمع ليست كائنا محايداً وأنه ورد فى الكتاب والسنة فى هذا الشأن ما شمل الرجال والنساء وليس مختصًا بالرجال؛ كقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(التوبة ٧١) ومن ذلك الحديث النبوى المشهور: "من أصبح وأمسى ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم".

ويرى (شمس الدين) أن هذه الأدلة شاملة للمرأة، وهذه الأدلة تثبت أنها مؤهلة للاهتمام العملى بالشأن العام للمجتمع والأمة، وللتعرف على حاجات المجتمع والأمة، لمراقبة الحكومة وأعمالها والسياسيين ومواقفهم على ضوء معرفتها بحاجات المجتمع والأمة، ولإبداء رأيها فى ذلك، ناقدة ومؤيدة ومعارضة، وللعمل على الاستجابة للحاجات وحل المشكلات، ويكون اشتراكها فى اختيار من يحكمها فرض عين تضطلع به لصلاح المجتمع.

وقد توصل السيد محمد باقر الصدر إلى نتيجة مماثلة لما وصل إليه (شمس الدين)، من أحقية المرأة فى تولى الولاية العامة، سواء ترجم ذلك فى وظيفة أو

مشاركة فى الانتخابات ناخبة ومرشحة، إذ يرى الصدر أن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة١٢)، ممارسة عملية ودليل قرآنى نفذه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى حياته التبليغية والسياسية، على قبول بيعة المرأة لولى الأمر بل ووجوبها، فإن البيعة فى هذه الآية هى بيعة طاعة لولى الأمر، على الالتزام بأحكام الشريعة وقوانينها، والإقرار بولايته.

ويكرر الحكيم أنه من أوضح الأدلة على دور المرأة السياسى وحقوقها السياسية فى الإسلام ما جاء فى آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وآيات الولاية والولاء العامة الدلالة والشاملة للرجال والنساء.

استدل السيد (محمد باقر الصدر) من الآية نفسها على أن المؤمنين رجالاً ونساءً مؤهلون للولاية السياسية، وأن الرجال والنساء سواء فيها، وتمارس الأمة - فى رأيه - دورها فى الخلافة فى الإطار التشريعى للقاعدتين القرآنيتين التاليتين:

أولاً: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾(الشورى ٣٨)، ثانياً: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(التوبة ٧١). فإن النص الأول يعطى الأمة صلاحية ممارسة أمورها عن طريق الشورى، ما لم يرد نص خاص على خلاف ذلك النص، والنص الثانى يتحدث عن الولاية، وأن كل مؤمن ولى الآخرين، ويريد بالولاية تولى أموره بقرينة تفريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه، والنص ظاهر فى سريان الولاية بين كل المؤمنين والمؤمنات بصورة متساوية. وينتج عن ذلك الأخذ بمبدأ الشورى، وبرأى الأكثرية عند الاختلاف.

ويعطى الصدر تأكيداً تاريخيًا على استدلاله، فهو يرى أن المرأة المسلمة قد دخلت ميدان السياسة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كما سجلت آية البيعة ذلك. وأبدت المرأة رأيها فى مسألة الإمامة والسياسة والخلافة بعد

وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فى إشارة لموقف السيدة فاطمة الزهراء، التى دخلت الميدان السياسى بعد وفاة أبيها (صلى الله عليه وسلم)، فكانت إلى جانب زوجها فى تحركه ومواقفه السياسية، فانضم إليها جمع من المهاجرين والأنصار، ليتشكل ذلك الوجود العقيدى والسياسى المعارض والرافض لبيعة السقيفة والداعى لإعادة البيعة لعلى.

وكانت السيدة فاطمة تتصل بالأنصار فى بيوتهم، حسب الرواية الشيعية، وتطالبهم بالبيعة لعلى ومعارضة بيعة السقيفة، وبالتأمل فى الآيتين (آية الشورى، وآية ولاية المؤمنين) كما وضح من تفسير الصدر لهما نجدهما أساساً فكريًا واسعاً للحقوق السياسية، بل للواجبات السياسية للأمة بكل عناصرها رجالاً ونساء، على حد سواء.

وختاماً، يمكن استخلاص أن اعتماد الفقه الإمامى مبدأ حرمة تقليد الميّت فيما يمكن أن يجتهد الفقيه الحى فيه، قد أسهم فى جعل الفقه الشيعى فى حالة استنفار دائم للاجتهاد فى المستجدات، بالإضافة إلى ذلك فإن ترك الفقه الإمامى العمل بالإجماع تماماً، قد ساعد الفقيه المعاصر فى أن يتحرك بسهولة ويسر فيما يجد أمامه من قضايا مشاركة المرأة فى العمل السياسى والولاية العظمى، فيما كان الفقيه السنى ينوء بكثرة ما يحمل من فتاوى تاريخية فى الموضوعات ذاتها.

وخرج الفقه الإمامى بإمكانية تولى المرأة ولاية عامة أو حتى عظمى، على أساس من تساؤل الفقه عن طبيعة الوظيفة العامة، والمطلوب من المواصفات الموضوعية لشاغلها، وإمكانية تحقيقه أعلى إفادة للأفراد إلى حين عودة الإمام الغائب.

الفصل السابع

نحو رؤية إسلامية عصرية

تمثل قضية المرأة سؤالاً كبيراً يطرحه النموذج الثقافى الغربى على النماذج الثقافية المغايرة فى عالم اليوم وفى مقدمتها النموذج الثقافى الإسلامى، وذلك فى محاولة منه لإحراجها ودفعها نحو الإحساس بالدونية، ومن ثم الاستعداد للتنازل عن خصوصيتها وتقبل الطرح الغربى كما هو دون أى تمحيص أو تعديل أو نقد.

وقد حظى النموذج الثقافى الإسلامى بشتى الاتهامات التى أقلها هضم حقوق الإنسان بشكل عام، والاعتداء على حقوق المرأة وامتهان كرامتها بشكل خاص.

وسوف نناقش الحقوق السياسية للمرأة فى ظل الشريعة الإسلامية من خلال النقاط التالية:

- الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية

إن معرفة الرؤية الإسلامية من قضية المرأة تتطلب معرفة الأسس المعرفية والمفاهيم الخاصة بها لتقديم تصور كلى يواجه التصورات الوضعية دون أن يهملها أو يتجاهلها، ولا سيما أن الإطار المعرفى الإسلامى يتضمن المطلق وينطلق من عقيدة مرتبطة بوحى، وهو ما يميزها عن الإطار المعرفى العلمانى الذى يتأسس على النسبية وإخضاع كل الظواهر للقياس، واستبعاد الدين من

المنهج واعتباره موضوعاً من موضوعات الدراسة لا منطلقاً للعلم والمعرفة، وهذا الاختـلاف بين الإطار المعرفى للنمـوذج الإسـلامى والنمـوذج الغـربى أدى إلى اختلاف السلوكيات الإنسانية والقوانين التى تنظمها، وتقوم الرؤية الإسلامية على ثلاثة مفاهيم كلية هى:

١-التوحيد:

يشكل جوهر العقيدة الإسلامية ومنطلق بناء حضارتها، الأمر الذى يستوجب أن يكون تحديد المنهج والمفاهيم السياسية الإسلاميـة موصولاً بهذه القاعدة العقدية الأساسية التى تحدد رؤية الكون ومناهج التفكير ومسالك التفاعل الاجتماعى.

٢-الاستخلاف:

يرتبط الإقرار بالتوحيد قيام الإنسان بخلافة الله فى الأرض، وبالتالى استحقاق المنزلة التى لا تعلو عليها سوى منزلة الله ودونها كل منزلة لغيره من المخلوقات، والإنسان مكلف تضبط حركته شريعة مصدرها الوحى، ثم يرد إلى الله بعد الموت ليسأله عن أدائه للأمانة وقيامه بالخلافة، وبذلك يرتبط مفهوم الاستخلاف بالمفاهيم الإسلامية الأخرى، وأبرزها مفاهيم العبادة والعمارة والأمانة التى تحدد رؤية الإنسان ووظيفته فى هذا الكون.

٣-السنن:

وهى مجموعة القوانين التى سنّها الله فى الكون والأنفس، ولا يستطيع الإنسان القيام بأمانة الاستخلاف إلا بالتعرف عليها وتسخيرها فى عمارة الكون، وهذه السنن تنقسم إلى سنن كونية تحكم نواميس الطبيعة، وسنن فطرية تحكم الإنسان بكونه فرداً كما تحكم الاجتماع الإنسانى وحركة المجتمعات، وسنن ثالثة تدعى سنن التكليف التى تنسجم مع ناموس الكون والفطرة الإنسانية وتبينها أحكام الشريعة الإسلامية أمراً ونهياً وتوجيهاً. وتتضح أهمية المفاهيم الكلية الثلاثة فى فهم الرؤية الإسلامية لعمل المرأة السياسى عند مقارنتها مع الرؤية الغربية العلمانية، إذ إنها قامت فى جذورها المسيحية على فكرة التجسيد (أى تجسد الرب فى المسيح الابن) وفكرة الثنائية (أى انقسام العالم إلى دنيا وآخرة والإنسان إلى جسد وروح والواقع إلى دين ودولة مع تقديم أحد الطرفين

على الآخر)، مما أدى إلى ظهور حركات تنطلق من هذه المفاهيم الغربية العلمانية تعلى من شأن المرأة وتحط من شأن الرجل واعتباره عدوًا لدودا لها لا تربطه بها إلا علاقات الصراع والعداء والمبارزة.

- تاريخ مشاركة المرأة فى العمل السياسى فى الإسلام

فى معظم الأحيان نقصر العمل السياسى على الترشيح والترشح فى البلديات وفى مجالس الأمة، وتولى الوزارات، ونحو ذلك، فى حين أن الرؤية الإسلامية للعمل السياسى أشمل وأوسع وأعمق من هذا بكثير، وربما استنكر البعض أن يكون العمل السياسى مجالاً تصلح له المرأة ويصلح لها، ولن نستطيع أن نتقدم فى الحديث حول هذا المجال إلا إذا تكلمنا عن تاريخ مشاركة المرأة فى العمل السياسى بمفهومه الواسع على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم).

فها هى النساء تهاجر إلى المدينة بنص القرآن الكريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ** ﴾ (الأحزاب: ٥٠) ، وروى البخارى بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرنى عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة - رضى الله عنهما - يخبران عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما كاتب سهيل بن عمر يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمر على النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك، وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبى (صلى الله عليه وسلم) على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل على أبيه سهيل بن عمر، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده فى هذه المدة، وإن كان مسلماً، وجاء المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ وهى عاتق، فجاء أهلها يسألون النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن ﴿ **إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ** ﴾ إلى قوله ﴿ **وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ** ﴾ (أخرجه البخارى - كتاب الشروط).

وها هى المرأة تبايع النبى صلى الله عليه وسلم وهو إمام الأمة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه البيعة - والبيعة فى صلب السياسة - فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (الممتحنة: ١٢) ، عن بن عباس - رضى الله عنهما - قال: شهدت الفطر مع النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - يصلونها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، خرج النبى صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر إليه حين يُجَلِّسُ بيده، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء معه بلال فقال: " يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك " الآية ثم قال حين فرغ منها: " أنتن على ذلك " قالت امرأة منهن لم يُجِبْهُ غيرها: نعم. لا يدرى من هى. قال: فتصدقن فبسط بلال ثوبه ثم قال:هلم لكُنَّ فداء أبى وأمى، فيلقين الفَتَخَ والخواتيم فى ثوب بلال. أخرجه البخارى - كتاب العيدين

يعلق الأستاذ أبو شقة فى كتابه القيم (تحرير المرأة فى عصر الرسالة) فيقول: إن مبايعة النبى - صلى الله عليه وسلم - لها عدة دلالات:

الدلالة الأولى: استقلال شخصية المرأة وأنها ليست مجرد تابع للرجل بل هى تبايع كما يبايع الرجل.

والدلالة الثانية: بيعة النساء هى بيعة الإسلام والطاعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذه يستوى فيها الرجال والنساء.

والدلالة الثالثة: مبايعة النساء النبى - صلى الله عليه وسلم - تقوم على أساسين: الأول: باعتباره - صلى الله عليه وسلم - المبلغ عن الله، والثانى باعتباره إمام المسلمين، ومما يؤكد وجود الاعتبار الثانى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

بالإضافة إلى مشاركة المرأة فى الجهاد وهو من السياسة الشرعية، وإجارة المرأة للرجال والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقر إجارتها كما سبق القول، ومشورة أم سلمة على النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية، كل هذا وغيره كثير، يؤكد وقائع وأحداثاً جرت فى عهد الرسالة تؤصل لهذا العمل، وتبين أهمية وجود المرأة فى المشهد السياسى على مسرح الأحداث.

يقول الأستاذ محمد سليم العوا فى كتابه (الفقه الإسلامى فى طريق التجديد): " والحق أن المرأة – من حيث تمتعها بحقوقها وحرياتها العامة، ومشاركتها فى العمل السياسى العام – كالرجل سواء بسواء، وأنه لا تعارض بين قيامها بواجبها السياسى وقيامها بواجباتها الأخرى إلا بقدر ما يقع مثل هذا التعارض بين واجبات الرجل السياسية وواجباته الأخرى كذلك، وهو تعارض يزال – حين يقع – بصورة فردية فى كل حالة على حدة، وليس من بين وسائل إزالته أو رفعه وضع قواعد مانعة للمرأة من العمل العام، أو قبول هذه القواعد حين يضعها الآخرون.

حتى المفهوم الضيق للعمل السياسى الذى يحصره البعض فى الترشيح والترشح:

فيقول عنه الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه (المرأة بين الفقه والقانون): "الإسلام لا يمنع من إعطائها هذا الحق، فالانتخاب هو اختيار الأمة لوكلاء ينوبون عنها فى التشريع ومراقبة الحكومة، فعملية الانتخاب عملية توكيل، يذهب الشخص إلى مراكز الاقتراع فيدلى بصوته فيمن يختارهم وكيلا عنه فى المجلس النيابى يتكلمون باسمه ويدافعون عن حقوقه، والمرأة فى الإسلام ليست ممنوعة من أن توكل إنساناً بالدفاع عن حقوقها والتعبير عن إرادتها كمواطنة فى المجتمع ".

وقد كان للمرأة دور سياسى فى كل عصور التاريخ الإسلامى حتى العصور التى نصفها بأنها عصور الانحطاط كانت لها فيها مشاركة فعالة، وحسبنا دراسة قامت بها الدكتورة ناريمان عبد الكريم أحمد (المرأة فى العصر الفاطمى) تستعرض فيها المرأة فى العصر الفاطمى ومشاركتها فى الأنشطة العامة، والسياسية أيضاً، وفى الحياة الاقتصادية، ودور المرأة أيام المجاعات، والمهن المختلفة التى زاولتها، وموقفها من الحاكم بأمر الله، وغير ذلك.

وتتمثل أهم مظاهر العمل السياسى التى يمكن أن تزاولها المرأة فى الواقع المعاصر:

١- الاشتراك فى النشاط الحزبى السياسى مع القوى والأحزاب.

٢ ـ إبداء الرأى فى شئون السياسة وممارسة السلطات المختلفة فى الدولة.

٣- المشاركة فى اختيار ممثل الأمة فى المجالس المختلفة.

٤- المشاركة فى اختيار الحاكم.

٥-الترشيح لعضوية المجالس المحلية والتشريعية والرئاسية (كما أجازه بعض العلماء).

مع ما أثبته تاريخ الإسلام، وما تقتضيه نصوصه ومقاصده، وما تشهده البشرية من تقدم وازدهار ارتقى بعقل الإنسان بعيدا عن عصور الظلام.. مع كل ذلك ما زالت هناك أصوات فى العالم الإسلامى تدعو إلى منع المرأة من المشاركة فى العمل السياسى والوظيفى إلا فى إطار ضيق جدًا، مستشهدة على ذلك بجملة أدلة لا تثبت لدى النظر الفاحص الدقيق، منها:

١-قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (الأحزاب:٣٣) فلا يجوز الخروج إلا لضرورة

٢-سد الذرائع: وبناء عليها يقولون إن مشاركة المرأة فى العمل العام تعرضها للاختلاط بالرجال، وربما الخلوة، وهذا حرام، وما أدى للحرام فهو حرام.

٣- مشاركة المرأة سياسيًا ربما تجعل لها ولاية على الرجل، وهذا ممنوع شرعا ومخالف للأصل الذى أثبته القرآن الكريم: **﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾**.

والجواب عن ذلك كما عبَّر الشيخ العلامة د. يوسف القرضاوى:

١- آية **﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾** لا تنهض دليلا لمنع مشاركة المرأة فى العمل العام، وذلك لأسباب، منها:

أ - الآية تخاطب نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - كما هو واضح من السياق، ونساء النبى - صلى الله عليه وسلم - لهن من الحرمة وعليهن من التغليظ ما ليس على غيرهن، ولهذا كان أجر الواحدة منهن إذا عملت صالحا مضاعفا، كما جعل عذابها إذا أساءت مضاعفا أيضا.

ب - إن أم المؤمنين عائشة مع هذه الآية خرجت من بيتها، وشهدت (معركة الجمل) استجابة لما تراه واجباً دينياً عليها، وهو القصاص من قتلة عثمان، وإن أخطأت التقدير فيما صنعت كما ورد عنها رضى الله عنها.

ج- إن المرأة قد خرجت من بيتها بالفعل، وذهبت إلى المدرسة والجامعة وعملت فى مجالات الحياة المختلفة، طبيبة ومعلمة ومشرفة وإدارية وغيرها، دون نكير من أحد يعتد به.. مما يعتبره الكثيرون إجماعا على مشروعية العمل خارج البيت للمرأة، بشروطه الشرعية المعروفة من احتشام وغيره.

د- إنَّ الحاجة تقتضى من (المسلمات الملتزمات) أن يدخلن معركة العمل العام فى مواجهة المتحللات والعلمانيات اللائى يتزعمن قيادة العمل النسائى، والحاجة الاجتماعية والسياسية قد تكون أهم وأكبر من الحاجة الفردية التى تجيز للمرأة الخروج إلى الحياة العامة.

٢ - سد الذرائع: لا شك أنَّ سد الذرائع مطلوب، ولكن العلماء قرروا أنَّ المبالغة فى سد الذرائع كالمبالغة فى فتحها، وقد يترتب عليها ضياع مصالح كثيرة، أكبر بكثير من المفاسد المخوفة، وهو من المسائل التى تقدر بقدرها من غير ما شطط ولا غلو.

وقد وقف بعض العلماء يوما فى وجه تعليم المرأة ودخولها المدارس والجامعات من باب سد الذرائع حتى قال بعضهم: تعلم القراءة لا الكتابة حتى لا تستخدم القلم فى كتابة الرسائل الغرامية ونحوها، ولكن غلب التيار الآخر، ووجد أن التعلم فى ذاته ليس شراً، بل ربما قادها إلى خير كثير، وغالى بعض المنكرين لحق المرأة فى تعلّم القراءة والكتابة، فدعا إلى حرمانها حتى من قراءة بعض السور الطوال، فقال:

علموهن الغزل والرند وخلوا قراءة وكتابة

وقراءة الفتاة بالحمد والإخلاص تغنى عن يونس وبراءة

٣- المرأة والولاية على الرجل: إنَّ الآية الكريمة التى ذكرت قوامة الرجال على النساء إنما قررت ذلك فى الحياة الزوجية، فالرجل هو ربّ الأسرة، وهو المسئول عنها، بدليل قوله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾، فقوله: ﴿ **وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ يدلنا على أنَّ المراد القوامة على الأسرة، وهى الدرجة التى منحت للرجال فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾.

ومع قوامة الرجل على الأسرة ينبغى أن يكون للمرأة دورها، وأن يؤخذ رأيها فيما يهم الأسرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى مسألة فطام الرضيع، ﴿ **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا** ﴾، وكما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود: "آمروا النساء فى بناتهن"، أى استشيروهن فى أمر زواجهن.

أما ولاية بعض النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعها، بل الممنوع هو الولاية العامة على الرجال.

والحديث الذى رواه البخارى عن أبى بكرة - رضى الله عنه - مرفوعا: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" إنما يعنى الولاية العامة على الأمة كلها، أى رئاسة الدولة، كما تدل عليه كلمة (أمرهم) فإنها تعنى أمر قيادتهم ورياستهم العامة.

أما بعض الأمر فلا مانع أن يكون للمرأة ولاية فيه، مثل ولاية الفتوى أو الاجتهاد، أو التعليم أو الرواية والتحديث أو الإدارة ونحوها، فهذا مما لها ولاية فيه بالإجماع، وقد مارسته على توالى العصور، فظهر فى النساء نوابغ كأمهات المؤمنين وعمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية التى أخذ عنها ابن شهاب الزهرى فوجدها بحرا لا ينزح، وفاطمة السمرقندية، وكريمة التى روت البخارى، وأم الخير التى روت مسلم، وغيرهن كثير.

حتى القضاء أجازه أبو حنيفة فيما تشهد فيه، أى فى غير الحدود والقصاص، مع أن بعض فقهاء السلف أجاز شهادتها فى الحدود والقصاص، كما ذكر ابن القيم فى (الطرق الحكمية).

وأجازه الطبرى بصفة عامة، وأجازه ابن حزم، مع ظاهريته، وهذا يدل على عدم وجود دليل شرعى صريح يمنع من توليها القضاء، وإلا لتمسك به ابن حزم، وجمد عليه، وقاتل دونه كعادته.

وسبب ورود الحديث المذكور يؤيد تخصيصه بالولاية العامة، فقد بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - أنَّ الفرس بعد وفاة إمبراطورهم، ولّوا عليهم ابنته بوران بنت كسرى، فقال: "لن يفلح قوم" الحديث.

ضوابط مشاركة المرأة

ولعل من المناسب فى هذا الموضع إيراد جملة الضوابط الشرعية لمشاركة المرأة فى الحياة العامة وظيفيًا أو مهنيًا أو سياسيًا:

١ - الزى الشرعى: قال تعالى: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ (النور:٣١)، وقال: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾(الأحزاب:٣٣)، فينبغى على المرأة أن تلبس اللباس المحتشم الساتر الفضفاض الذى لا يكون زينة فى نفسه على نحو ما هو مبين فى كتب الفقه.

٢-غضّ البصر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور٣٠-٣١)، قال ابن عبد البر: "وجائز أن ينظر إلى ذلك منها (الوجه والكفين) كل من نظر إليها غير ريبة ولا مكروه، وأما النظر للشهوة فحرام".

٣- التمييز عن الرجال واجتناب المزاحمة: عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سلم قام النساء حين يقضى تسليمه ومكث يسيرا قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: "فأرى والله أعلم أنَّ مكثه لكى ينفذ النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم" ويؤكد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "لو تركنا هذا الباب للنساء".

٤- اجتناب الخلوة: عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم" قال الحافظ ابن حجر: "فيه منع الخلوة بالأجنبية، وهو إجماع.. لكن اختلفوا هل يقوم غير المحرم مقامه فى هذا كالنسوة الثقات؟ والصحيح الجواز لضعف التهمة به".

٥-جديّة مجال اللقاء: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾، وتشير هذه الآية إلى أنَّ موضوع الحديث بين الرجال والنساء ينبغى أن يكون فى حدود المعروف ولا يتضمن منكرا، كما ينبغى أن تكون للقاء أسباب جادة تدعو إليه.

٦- وجوب إذن الزوج للدخول إن كان مقيما غير مسافر: عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: "لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه".

٧- ألا يكون خروج المرأة للعمل العام على حساب زوجها وبيتها وأولادها:

بمعنى ألا تمنعها المشاركة فى العمل العام من الوفاء بكل واجباتها، زوجة وأماً (وخير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش.. أحناه على ولد فى صغره، وأرعاه لزوج فى ذات يده)، ولا بدَّ من محاولة التوفيق والتوازن بين العمل داخل البيت وخارجه.

● أهم الآليات التى تفعّل طاقات المرأة ومشاركتها السياسية فى المجتمع

– أن نعيد للخطاب الدينى بشأن قضاياها توازنه واعتداله: فلا نميل مع المُفَرِّطين، ولا مع المُفْرِطين، بل نبتغى سبيلاً معتدلاً وخطاباً وسطاً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينشد من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

– **دور الإعلام فى دعم مشاركة المرأة سياسياً:** وذلك من خلال تقديم الصورة المنضبطة للمرأة العاملة التى توازن بين واجباتها وتخدم مجتمعها ودينها، ويكون ذلك من خلال تقديم أعمال فنية تاريخية وواقعية، تبين النماذج الملتزمة، وتحذر من الأمثلة المنغلقة والمنفلتة.

– **دور الحركات والمنظمات الإسلامية:** وذلك عبر استلهام النماذج التطبيقية لمشاركة المرأة فى عصر الرسالة بكل أبعادها، وما تلاها من عصور سارت على نفس الدرب مما يبرز جليًا اهتمام الإسلام بالمرأة فى كل المشاركات وخصوصاً السياسية.

– **دور الأسرة والمجتمع والمدرسة:** وذلك من خلال تربية المرأة على النموذج الأمثل لطبيعة المرأة، والحفاظ عليها وإبراز مكانتها من خلال المناهج التربوية ومن خلال التوجيه والنصح والإرشاد.

– **دور الزوج:** وهو من أهم الأدوار الداعمة للمرأة فى مسيرتها، وعليه يقع العبء الأكبر فى توجيه وتشجيع وتنمية زوجته شرعيًا وسياسيًا وواقعيًا ومعرفيًا.

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير ابن كثير.

٣- صحيح البخارى.

٤- تفسير الظلال: سيد قطب.

٥- هداب محمد أحمد الحاج حسين، المرأة فى القصص القرآنى، رسالة ماجستير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا ٢٠٠٣.

٦- معهد العلاقات العامة، سيداو / Cedaw، تقييم وضع المرأة: دليل خاص بإعداد تقارير عن اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، جامعة مينسوتا، الأمانة العامة للكومنولث، شبكة العمل الدولية من أجل حقوق المرأة ١٩٩٦.

٧- فاطمة خفاجى، ماذا بعد مؤتمر بكين، فى: هبة أحمد نصار، صلاح سالم زرنوقة، (محررون)، المرأة والتنمية، الأفاق والتحديات، ط ١ (القاهرة، مركز دراسات وبحوث الدولة النامية) ١٩٩٩.

8-The United nations , the Convention the Elimination of All forms of Discrimination Against Women, the optional protocol : Text& Material (N.Y: united nations Publications , 2000 .

9-Sullivan , Earl . L , Woman in Egyptian Public Life (Cairo , AUC press , 1987.

١٠- فرخندة حسن، المرأة المصرية والمؤتمرات الدولية، المؤتمر القومى الثانى للمرأة (أساسيات تنمية المرأة للنهوض بالمجتمع)، أبريل ١٩٩٦.

١١- عزة وهبى، المرأة المصرية والأجهزة التشريعية، بحث مقدم إلى مؤتمر المرأة المصرية والعمل العام: رؤية مستقبلية، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٩٥.

١٢- مركز المعلومات، الأمانة العامة لمجلس الشورى قائمة نسب مشاركة المرأة فى مجلس النواب والشيوخ فى عدد من الدول الأجنبية، القاهرة ٢٠٠٠.

13-Moghadam , Valentine , Modernizg Women , Gender & social change in the Middle East , N.Y : / ynne Rienner Publishers ,1993 .

١٤- إجلال خليفة، الحركة النسائية الحديثة، القاهرة ١٩٧٧.

١٥- إبراهيم عبد الله، مشكلة المرأة فى الدول العربية، القاهرة ١٩٥٨.

١٦- زيدان عبد الباقى، المرأة بين الدين والمجتمع، القاهرة ١٩٧٧.

١٧- فوزية فهيم، الإعلام والمرأة، المكتبة الثقافية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.

١٨- عزة جلال أحمد هاشم، المشاركة السياسية للمرأة، خبرة الجمهورية الإيرانية نموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٦، ص ٢٧.

١٩- محمد الحسن حسين ولاية المرأة فى الإسلام، بحث مقارن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة كلية دار العلوم، ١٩٨٧، ص ٧٨- ٩٠.

٢٠- حسنين توفيق، العنف السياسى فى مصر، فى: نيفين عبد المنعم مسعد (محررة) ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن (جامعة القاهرة: مركز بحوث الدراسات السياسية ١٩٩٥ ص ٣٧١- ٣٧٤.

٢١- حسين علوان البيج، المشاركة السياسية والعملية السياسية فى الدول النامية، فى مجموعة باحثين الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوطن العربى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، د. ت، ص ٦٥.

٢٢- ثامر محمد، إشكاليات الشرعية والمشاركة وحقوق الإنسان فى الوطن العربى، المستقبل العربى، بيروت، يناير ٢٠٠٠.

٢٣- عبد السلام على نوير، الحراك الاجتماعى والتغير السياسى فى مصر:

١٩٧٤ـ ١٩٨٧، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

٢٤- محمد صفى الدين خربوش، (محررا)، التطور السياسى فى مصر من ١٩٧٢ـ ١٩٨٢، مؤتمر الباحثين الشباب، القاهرة مركز البحوث والدراسات السياسية.

٢٥- المجلس القومى للمرأة، استراتيجية دعم المشاركة السياسية للمرأة، القاهرة، يناير ٢٠٠٥ فرخندة حسن، التنمية بالمشاركة: نظرة عامة فى دليل المشاركة السياسية وإدارة الحملات الانتخابية للمرأة المصرية (المجلس القومى للمرأة، القاهرة الجزء الأول، ٢٠٠٤).

٢٦- رباب عبد الرحمن هاشم خليفة، المعالجة التليفزيونية والصحفية لقضايا الإصلاح السياسى فى المجتمع المصرى ودورها فى تشكيل معارف الجمهور واتجاهاته نحوها، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام جامعة القاهرة ٢٠٠٨.

27-Samuel p Huntington &joan nelson ,no easy choice: political participation in developing countries (Cambridge: Harvard university press,1976.

28- hateh, afshar,"komeinis teachings and their Implications for Iranian woman ",in tabari,azar and yaganeh,Nahid(eds) In the sado of Islam the women,s movement in Iran.(London :zed press,1997.

29- David sears, political socialization ",in :fred greenstein&nelson polsby (eds),hand book of political scie,vol 2, (Massachusetts:Addison wesely publishing company,1999 .

30- Sidey verba, small groups Abdpolotical behavior,a study of leadership (princton: university press, 1991 .

٣١- أسماء محمد أحمد زيادة، الدور السياسى للمرأة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة فرع الفيوم، كلية دار العلوم.



المؤلف فى سطور

الدكتور/ رفعت عارف محمد عثمان الضبع
أستاذ الإعلام بكلية التربية النوعية بجامعة طنطا

المؤلفات:

١) الإعلام فى الإسلام.
٢) الإتيكيت «السلوك الإنسانى» وفقًا للأديان السماوية.
٣) البروتوكول.
٤) الإعلام النوعى.
٥) التواصل الاجتماعى.
٦) المتحدث الرسمى.
٧) صناعة النجم.
٨) الإعلام الجديد.
٩) الإعلام التربوى تأصيله وتحصيله.
١٠) الصحافة التربوية.
١١) الخبر.
١٢) الإذاعة النوعية.
١٣) التليفزيون النوعى.
١٤) السيناريو.
١٥) مهارات الاتصال الفعال.
١٦) إدارة الأزمات الإعلامية.
١٧) الإعلان.

الفهـــرس

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٠١٥/١٤١٦٣

الترقيم الدولى : I.S.B.N -978-977-236-889-1

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة